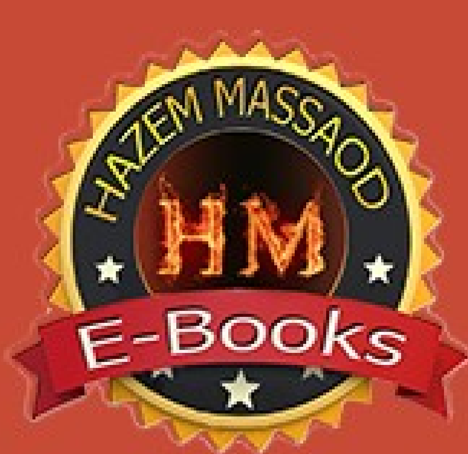




أسرار البلاغة

عبد القاهر الجرجاني



أسَرارُ البلاغة

عَبد القَاهِر الجرجَانيّ

PJ6161 .J97 2015

جرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، ت. 1078م
أسرار البلاغة/ تأليف: أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي؛ إعداد: خليل الشيخ.- ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2015.
ص.؛ سم. (سلسلة عيون النثر العربي القديم)
تدمك: 978-9948-17-506-3
1. البلاغة العربية.
أ. شيخ، خليل. ب. العنوان.

إعداد:
د. خليل الشيخ

خطوط:
الفنان التشكيلي الخطاط
محمد مندي





الطبعة الأولى 1436هـ 2015م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب. 2380
publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

مُقدِّمة

يُشَكِّلُ كتاب "أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني (المُتوفَّى سنة 471 أو 474 هجريَّة) واحدًا من أبرز الكتب العربيَّة التي تدور حول أسرار البيان العربي على نحو مُتميِّز، لأنَّ الكتاب يُؤسِّس لنظريّة في البيان ويجمع بين التنظير والتطبيق البلاغي.

لقد عرف تاريخ البلاغة الكثير من الكتابات التي نَحَتْ منحى تجميعيًّا أو انطباعيًّا، لكنَّ "أسرار البلاغة"، يُعدُّ واحدًا من الكتب التي صَدَرَ الجرجاني فيها عن رؤية نظريّة وممارسة تحليليّة بتوازن يبعث على الإعجاب.

بدأ عبد القاهر كتابه بمناقشته مقولة شاعتْ في كتب النقد العربي، وهي اللفظ والمعنى، التي تَعرَّض لها بِشر بن المُعتمِر والجاحظ وابن قتيبة وقدامة بن جعفر. حيث يرى أنصار اللفظ أنَّ قيمة العمل الأدبي تَكمُن في ألفاظه من حيث هي كلمات مفردة، وأنَّ هذه الألفاظ تتفاضل فيما بينها من حيث الفصاحة، والجمال، والروعة، فيما يرى أنصار المعاني أنَّ قيمة العمل الأدبي في ما يحتويه من معانٍ وأفكار؛ فبمقدار نُبْل هذه المعاني وشَرَف هذه الأفكار ترتفع قيمة العمل الأدبي، وقد انتهى عبد القاهر بعد مناقشته للمقولتين إلى رفضهما معًا، وخَلُصَ إلى أنَّ القيمة الفنيَّة للنص الأدبي تَكْمُنُ في صياغته ونَظْمه، وأنَّ النَّظْم هو مناط الإبداع ومظهر عبقريَّته، فالألفاظ لا تتفاضل فيما بينها قبل أنْ تُوضع في سياق لغوي، كما يستحيل وجود تفاضل بين اللفظين في الدلالة، قبل دخولهما في النَّظْم والتأليف.

وجَّه عبد القاهر "أسرار البلاغة" لدراسة مباحث عِلم البيان، كما وجّه جُلّ اهتمامه إلى التشبيه والاستعارة، حيث سعى لسَبْرِ بلاغتهما وما يمتلكانه من طاقات فنيّة وتعبيريّة بالغة التنوّع

ومن الأمثلة التي اختارها لبيان جمال الاستعارة، الأبيات التي رأى ابن قتيبة أنَّها ممَّا حَسُن لفُظه وضّعُف معناه:

ولَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجةٍ

ومَسَّح بالأركان مَنْ هو ماسحُ

وشُدَّتْ على حَدْبِ المهَارَى رِحَالُنا

ولم يَنْظُر الغادي الَّذِي هو رائحُ

أخذْنا بأطراف الأحاديث بَيْنَنا

وسَالَتْ بأعناق المَطيّ الأباطحُ

أمَّا عبد القاهر الجرجاني فيرى أنَّ الاستعارة في قول الشاعر "وسالت بأعناق المطي الأباطح" هي من ذلك النوع الخاص النادر الذي لا تجده إلَّا في كلام الفُحول حيث أراد الشاعر أنَّها سارت سَيراً حَثيثاً في غاية السرعة، وكانت سرعة في لين وسلامة كأنَّها كانت سيولا وقعتْ في تلك الأباطح فَجَرَتْ بها، ولكنَّه لا يرى روعة الاستعارة في مجرد "أن جعل المطي في سرعة سيرها وسهولتها كالماء، يجري في الأباطح"، فإنَّ هذا تشبيه معروف، وإنَّما سِرُّ هذه الروعة يرجع إلى النَّظْم البارع، والتأليف الدقيق، حيث أسند الفعل سال للأباطح ثُمَّ عدّاه بالباء التي أدخلها على أعناق المطي ولم يقل بالمطي ولو قال سالت في المطي الأباطح لم يكن شيئًا.

وقد حرص عبد القاهر على أنْ يرتبط تحليل الاستعارة بالقُدرة على التذوّق فهو يصف الاستعارة والتَّخيُّل بأنَّهما موضع في غاية اللطف لا يبين إلَّا إذا كان التصفّح للكلام حسَّاسًا، يعرف وَحْي الشِّعر، وخفي حركته التي هي كالهمس وكمسرى النفس في النفس.

يتتبَّع عبد القاهر فروع عِلم البيان فيتناول التشبيه والاستعارة مبيّنًا ضُروبهما، وصُورهما، وجوانب بلاغتهما المتنوِّعة، كما ابتدع بعضها من ضروب التشبيه؛ كمبحث التشبيه التمثيلي الذي خصَّه عبد القاهر بدراسة بالغة العمق حيث يُفرِّق عبد القاهر بين التمثيل، وسواه من صور التشبيه، بأنَّ التمثيل ما كان وجه الشَّبه فيه عقليًّا، وكان هيئة منتزعة من تعدّد أو على حَدِّ قوله:

"هو ما انتُزِع من عدَّة أُمور ليجمع بعضها إلى بعض ثُمَّ يُستخرَج من مجموعها الشبه فيكون سبيله سبيل الشيئين، يمزج أحدهما بالآخر، حتَّى تحدث صورة غير ما كان لهما في حال الإفراد."

ومثلما أوضح العلَّامة محمود محمد شاكر في مُقدِّمة تحقيقه للكتاب، أنَّه سَبَقَ عبد القاهر الجرجاني مَن تحدَّث في مسائل البيان، لكنَّه وحده جعل من هذا الفنّ "مرفوع القواعد، مُفتَّح الأبواب... فهو واضِع عِلْم البلاغة".

فاتحة الكتاب وفضيلة البيان

قال الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمة الله عليه ورضوانه:

اعْلَمْ أنَّ الكلام هو الذي يُعطي العلومَ منازِلَهَا، ويُبيِّن مراتبها، ويكشفُ عن صُوَرها، ويَجْنِي صنوفَ ثَمَرها، ويدلُّ على سرائرها، ويُبْرِزُ مكنون ضمائرها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان، ونبّه فيه على عِظَم الامتنان، فقال عزّ مِنْ قائل: {الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآَنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} [الرحمن: 1 . 4]، فلولاه لم تكن لتتعدَّى فوائدُ العلمِ عالِمَه، ولا صحَّ من العاقل أنْ يَفْتُق عن أزاهير العقلِ كمائمه[1]، ولتعطَّلَتْ قُوَى الخواطر والأفكار من معانيها، واستوَتِ القضيّةُ في مَوْجُودَها وفانيها. نَعمْ، ولوقع الحيُّ الحسَّاس في مرتبةِ الجماد، ولكان الإدراك كالذي ينافيه من الأضداد، ولبقيتِ القلوب مُقْفَلةً تَتَصَوَّنُ على ودائعها[2]، والمعاني مَسْجُونَةً في مَواضعها، ولصارت القرائح عن تصرُّفها معقولةً[3]، والأذْهان عن سلطانها معزولةً، ولما عُرف كفرٌ من إيمان، وإساءة من إحسان، ولمَا ظهر فرقٌ بين مدح وتزيين، وذَمّ وتهجين، ثُمَّ إنّ الوصفَ الخاصَّ به، والمعنى المثبِتَ لنسبه، أنَّه يريك المعلومات بأوصافها التي وجدها العلم عليها، ويقرِّر كيفياتها التي تتناولها المعرفةُ إذا سَمَتْ إليها.

ومن البيّن الجليّ أنَّ التبايُنَ في هذه الفضيلة، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة، ليس بمجرَّد اللفظ، كيف؟ والألفاظ لا تُفيد حتى تُؤلَّف ضربًا خاصًّا من التأليف، ويُعْمَد بها إلى وجهٍ دون وجهٍ من التركيب والترتيب، فلو أنَّك عَمَدتَ إلى بيت شِعرٍ أو فَصْل نثرٍ فعددتَ كلماته عَدًّا كيف جاء واتَّفق، وأبطلتَ نضدَهُ ونظامه الذي عليه بُنيَ، وفيه أُفرغ المعنى وأُجري، وغيّرتَ ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبنَسَقِه المخصوص أبان المراد، نحو أنْ تقول في:

قِفا نَبْكِ من ذِكْرَى حَبيبٍ ومنزلِ

"منزل قفا ذكرى من نبك حبيب"، أخرجتَه من كمال البيان، إلى مجال الهَذَيان. نعم، وأسقطتَ نسبتَهُ من صاحبه، وقطعتَ الرَّحمِ بينه وبين مُنْشِئه، بل أحَلْت أنْ يكون له إضافةٌ إلى قائل، ونَسَبٌ يَخْتَصّ بمتكلم. وفي ثبوت هذا الأصل ما تَعْلم به أنّ المعنى الذي له كان هذه الكَلِم بيتَ شِعرٍ أو فصلَ خطابٍ، هو ترتيبها على طريقة معلومة، وحصولها على صورة من التأليف مخصوصة. وهذا الحُكْمُ . أعني الاختصاص في الترتيب . يقع في الألفاظ مرتَّبًا على المعاني المرتَّبَة في النفس، المنتظمةِ فيها على قضيّة العقل. ولا يُتَّصوَّر في الألفاظ وُجُوبُ تقديمٍ وتأخيرٍ، وتخصُّصٍ في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وُضِعَت المراتبُ والمنازلُ في الجُمَل المركَّبة، وأقسام الكلام المدوَّنه، فقيل: من حقِ هذا أنْ يَسبق ذلك، ومن حقِ ما ههنا أنْ يقع هناك، كما قيل في المبتدأ والخبر والمفعول والفاعل، حتى حُظِر في جنس من الكَلِم بعينه أنْ يقع إلّا سابقًا، وفي آخَرَ أنْ يُوجد إلَّا مبنيًّا على غيره وبه لاحقًا، كقولنا: إنَّ الاستفهام له صَدْر الكلام، وإنَّ الصفة لا تتقدَّم على الموصوف إلَّا أنْ تُزالَ عن الوصفية إلى غيرها من الأحكام.

فإذا رأيتَ البصير بجواهر الكلام يَستحسن شِعرًا أو يَستجيد نثْرًا، ثُمَّ يجْعَلُ الثناءَ عليه من حيثُ اللّفظ فيقول: حُلْوٌ رشيقٌ، وحَسَنٌ أنيقٌ، وعذبٌ سائغٌ، وخَلُوبٌ رائعٌ، فاعلم أنَّه ليس يُنبئكَ عن أحوالٍ ترجعُ إلى أجْراس الحروف، وإلى ظاهر الوضعِ اللغويّ، بل إلى أمرٍ يقع من المرءِ في فؤاده، وفضلٍ يَقْتدحُه العقلُ من زِناده[4].

نمط واحد لاستحسان اللفظ

وأمَّا رجوع الاستحسان إلى اللفظ من غير اشتراك من المعنى فيه، وكونِه من أسبابهِ ودواعيه، فلا يكاد يَعْدُو نمطًا واحدًا، وهو أنْ تكون اللفظة ممَّا يتعارفه الناس في استعمالهم، ويتداولُونه في زمانهم، ولا يكون وَحْشِيًّا غريبًا، أو عامّيًّا سخيفًا، سُخْفُهُ بإزالته عن موضوع اللغة، وإخراجِه عمَّا فرضتْه من الحُكم والصفة، كقول العامة "أشْغَلتَ" و"انفسد". وإنَّما شرطتُ هذا الشرط، فإنَّه ربَّما استُسخف اللفظ بأمر يرجعُ إلى المعنى دون مجرَّد اللفظ، كما يُحكى من قول عبيد الله بن زياد لمَّا دُهش: "افتحوا لي سيفي"، وذلك أنَّ "الفتح" خلاف "الإغلاق"، فحقُّه أنْ يتناول شيئًا هو في حُكم المُغلقَ والمسدود، وليس السَّيف بمسدود، وأقصى أحوالِهِ أنْ يكون كونُه في الغِمْد بمنزلة كَوْنِ الثوب في العِكْمِ، والدرهم في الكيس، والمتاعِ في الصندوق، و"الفتح" في هذا الجنس يتعدَّى أبدًا إلى الوِعاء المسدود على الشيء الحاوي له لا إلى ما فيه، فلا يُقال: "افتحِ الثوبَ"، وإنَّما يُقال: "افتحِ العِكْمَ"[5] و"أَخرجِ الثوب" و"افتحِ الكيس".

وههنا أقسام قد يُتَوهَّمُ في بَدْءِ الفكْرة، وقبلَ إتمام العِبرة، أنَّ الحُسْنَ والقبحَ فيها لا يتعدَّى اللفظَ والجَرْسَ[6]، إلى ما يُناجِي فيه العقلُ النفسَ، ولها إذا حُقّق النظر مَرجِعٌ إلى ذلك، ومُنْصَرَفٌ فيما هنالك، منها: التجنيس والحشو.

التجنيس:

أمَّا "التجنيس" فإنَّك لا تستحسن تجانُسَ اللفظتين إلَّا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعًا حميدًا، ولم يكن مَرْمَى الجامع بينهما مَرْمًى بعيدًا، أَتُراك استضعفتَ تجنيس أبي تمام في قوله:

ذَهَبَت بمُذْهَبَهِ السَّمَاحَةُ فَالْتَوتْ

فِيهِ الظُّنُونُ: أَمَذْهَبٌ أم مُذْهَبُ[7]

واستحسنتَ تجنيس القائل:

حتَّى نَجَا من خَوفِهِ وَمَا نَجا[8]

وقولَ المحدَث:

ناظِراه فيما جَنَى ناظِراه

أوْ دَعانِي أمُتْ بما أودعَانِي[9]

لأمرٍ يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنَّك رأيتَ الفائدة ضَعُفَت عن الأوّل وقويت في الثاني؛ ورأيْتَك لم يزدك "بمَذْهب ومُذهب" على أنْ أسْمَعَكَ حروفًا مكرَّرةً، تروم لها فائدة فلا تجدُها إلَّا مجهولةً منكرةً، ورأيتَ الآخر قد أعَادَ عليك اللفظةَ كأنَّه يَخدعُك عن الفائدة وقد أعطاها، ويُوهِمك كأنَّه لم يَزِدْك وقد أحسن الزيادة ووفَّاها، فبهذه السريرة صار التجنيس . وخصوصًا المستوفَى منه المُتَّفَقَ في الصورة . من حُلَى الشِّعر، ومذكورًا في أقسام البديع.

الألفاظ خَدَم المعانـي

فقد تبيّن لك أنَّ ما يُعطي "التجنيسُ" من الفضيلة، أمرٌ لم يتمَّ إلَّا بنُصْرةِ المعنى، إذْ لو كان باللفظ وَحْدَهُ لمَا كان فيه إلا مُستحسَنٌ، ولمَا وُجد فيه معيبٌ مُسْتهجَن. ولذلك ذُمَّ الاستكثار منه والوَلُوعُ به.

وذلك أنَّ المعاني لا تَدِين في كلِّ موضع لما يَجْذبها التجنيس إليه، إذْ الألفاظ خَدَمُ المعاني والمُصرَّفةُ في حُكمها، وكانت المعاني هي المالكةَ سياستَهَا، المستحقَّةَ طاعتها. فمَن نَصَرَ اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جِهَته، وأحالهُ عن طبيعته، وذلك مظنّة الاستكراه، وفيه فَتْحُ أبواب العيب، والتَّعرُّضُ للشَّيْن.

ولهذه الحالة كان كلامُ المتقدّمين الذين تركوا فَضْل العناية بالسجع، ولَزِموا سجِيَّةَ الطبع، أمكنَ في العقول، وأبْعَد من القَلَقِ، وأوضحَ للمُراد، وأفضل عند ذوي التَّحصيِل، وأسلمَ من التفاوتِ، وأكْشَفَ عن الأغراض، وأنْصَرَ للجهة التي تَنحوُ نَحْوَ العقل، وأبعدَ من التَّعمُّلِ[10] الذي هو ضربٌ من الخِداعِ بالتزويق، والرضَى بأنْ تَقَع النقيصةُ في نفس الصُّورة، وإنّ الخِلْقَةَ، إذا أُكثر فيها من الوَشْمِ والنقش، وأُثْقل صاحِبُها بالحَلْي والوَشْي، قياسُ الحَلْي على السيف الدَّدَان[11]، والتَوسُّعِ في الدعوى بغير بُرْهان، كما قال المتنبي:

إذا لم تُشاهِدْ غَيْرَ حُسْن شِيَاتِهَا

وَأعْضَائها فالحُسْنُ عنك مُغَيَّبُ

الحرص على سلامة المعنى

فإنْ أردتَ أنْ تعرف مِثالًا فيما ذكرتُ لك، من أنَّ العارفين بجواهر الكلام لا يعرِّجون على هذا الفنّ إلَّا بعد الثقة بسلامة المعنى وصحَّته، وإلَّا حيثُ يأمَنون جنايةً منه عليه، وانتقاصًا له وتعويقًا دونه، فانظر إلى خُطَب الجاحظ في أوائل كتبه هذا . والخُطَبُ من شأنها أنْ يُعْتَمَد فيها الأوزانُ والأسجاعُ، فإنَّها تُرْوَى وتُتناقل تَنَاقُلَ الأشعار، ومحلُّها محلُّ النسيب والتشبيب من الشِّعر الذي هو كأنَّه لا يُرَادُ منه إلَّا الاحتفالُ في الصنعة، والدَّلالةُ على مقدار شَوْطِ القَرِيحَة، والإخبارُ عن فَضْل القوَّة، والاقتدار على التفنُّن في الصنعة . قال في أوَّل كتاب الحيوان:

"جَنَّبك الله الشُّبْهة، وعَصَمَك من الحَيْرةِ، وجعل بينك وبين المعرفة سببًا، وبين الصدق نسَبًا، وحبَّب إليك التثُّبت، وزَيَّنَ في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عِزَّ الحقّ، وأوْدَعَ صدرَك بَرْدَ اليقين وطَرَد عنك ذُلَّ اليأس، وعرَّفك ما في الباطل من الذلّة، وما في الجهل من القِلّة".

فقد ترك أوَّلًا أنْ يوفِّق بين "الشبهة" و"الحيرة" في الإعراب، ولم يَرَ أنْ يَقْرِن "الخلاف" إلى "الإنصاف"، ويَشْفَعَ "الحق" "بالصدق"، ولم يُعْنَ بأنْ يَطْلُب "لليأس" قرينةً تصل جناحَه، وشيئًا يكون رَدِيفًا له، لأنَّه رأى التوفيق بين المعاني أحقَّ، والموازنةَ فيها أحسنَ، ورأى العناية بها حتى تكونَ إخوةً من أبٍ وأمٍّ؛ ويذَرَها على ذلك تَتَّفقُ بالوداد، على حسب اتّفاقها بالميلاد، أوْلى من أنْ يَدَعها، لنُصْرَة السجع وطلبِ الوزن، أولادَ عَلَّة[12]، عسى أنْ لا يوجد بينها وفاق إلَّا في الظواهر، فأمَّا أنْ يَتَعَدَّى ذلك إلى الضمائر، ويُخْلص إلى العقائِد والسَّرائر، ففي الأقلِّ النادر.

ومثال ما جاء من السجع هذا المجيءَ وجرى هذا المجرى في لِين مقَادته، وحلَّ هذا المحلَّ من القَبُولِ قولُ القائل: "اللهم هَبْ لي حمدًا، وهَبْ لِي مجدًا، فلا مجدَ إلَّا بِفَعالٍ، ولا فَعَال إلّا بمال"،

وقولُ ابن العميد: "فإنَّ الإبقاء على خَدَم السلطان عِدْلُ الإبقاء على ماله، والإشفاق على حاشيته وحَشَمه، عِدْلُ الإشفاق على ديناره ودِرْهَمه".

ولستَ تجد هذا الضرب يكثُر في شيءٍ، ويستمرُّ كَثْرَته واستمرارَه في كلام القدماء، كقول خالد[13]: "ما الإنسان، لولا اللسان، إلَّا صورة ممثلة، وبهيمة مُهْمَلة"، وقول الفضل بن عيسى الرقاشي: "سَلِ الأرض فقل: مَنْ شَقَّ أنهارك، وغرسَ أشجارك، وجنى ثمارك، فإنْ لم تُجبك حِوارًا، أجابتك اعتبارًا".

إرسال المعنى على سَجِيَّته هو الذي يُحسن التجنيس والسّجع

إنَّك لن تجد أيمنَ[14] طائرًا، وأحْسنَ أوّلًا وآخرًا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلبَ للاستحسان، من أنْ تُرسل المعاني على سجيّتها، وتَدَعها تطلب لأنفسها الألفاظَ، فإنَّها إذا تُركتْ وما تريد لم تكتسِ إلَّا ما يليق بها، ولم تَلْبَسْ من المعَارض[15] إلَّا ما يَزِينها. فأمّا أنْ تَضَع في نفسك أنَّه لا بُدَّ من أنْ تجنّس أو تَسْجَعْ بلفظين مخصوصين، فهو الذي أنْتَ منه بِعَرَضِ[16] الاستكراه، وعلى خَطَرٍ من الخطأ والوقوع في الذَّمّ، فإنْ ساعَدَك الجَدّ كما ساعد في قوله: "أو دعاني أمُت بما أودعاني"، وكما ساعد أبا تمام في نحو قوله:

وَأَنجدتمُ من بَعْدِ إتِّهام دَارِكُمْ

فيا دَمعُ أنْجِدْنِي عَلى سَاكِنِي نَجْدِ

وقوله:

هُنَّ الحَمَامُ، فإنْ كَسَرتَ عِيافةً

من حَائِهِنّ فإنَّهنّ حِمَامُ[17]

واعلمْ أنَّ النكتة التي ذكرتُها في التجنيس، وجعلتُها العّلةَ في استيجابه الفضيلةَ وهي حُسْن الإفادة، مع أنّ الصورة صورةُ التكرير والإعادة وإنْ كانت لا تظهر الظهورَ التامَّ الذي لا يمكن دَفْعُه، إلَّا في المُستوفَى المُتَّفق الصورة منه كقوله:

ما ماتَ مِن كَرَم الزمانِ فإنَّه

يَحْيَى لدَى يَحْيَى بن عبد الله

فأمَّا ما يقع التجانس فيه على العكس من هذا، وذلك أنْ تختلف الكلمات من أوّلها كقول البحتري:

بسيوفٍ إيماضُها أوجالُ

للأعادي ووقعُها آجالُ[18]

وكذا قول المتأخِّر:

وكَمْ سبقَتْ منه إلَيَّ عوارفٌ

ثنائيَ من تلك العَوارف وَارِف[19]

وكم غُرَرٍ من بِرّهِ ولطائفٍ

لَشُكْرِي على تلك اللَّطائِف طائفُ

وذلك أنَّ زيادة "عوَارِف" على "وارف" بحرف اختلاف من مبدأ الكلمة في الجملة، فإنَّه لا يبعد كلّ البعد عن اعتراض طرفٍ من هذا التخيُّل فيه، وإنْ كان لا يقوى تلك القوةَ، كأنَّك ترى أنَّ اللفظة أُعيدتْ عليك مُبْدَلًا من بعض حروفها غيرُه أو محذوفًا منها.

فالذي يجب عليه الاعتماد في هذا الفنّ، أنَّ التوهُّم على ضَربين: ضربٍ يَستحكم حتَّى يبلُغ أنْ يصيرَ اعتقادًا.

وضربٍ لا يبلغ ذلك المَبْلغ، ولكنَّه شيءٌ يجري في الخاطر، وأنتَ تعرف ذلك وتتصوَّر وَزْنه إذا نظرتَ إلى الفرق بين الشيئين يشتبهان الشَبَهَ التامَّ؛ والشيئين يُشَبّه أحدُهُما بالآخر على ضَرْب من التقريب، فاعرفه.

الحشو

وأمَّا الحشو، فإنَّما كُرِهَ وذُمَّ وأُنْكر ورُدَّ، لأنَّه خَلَا من الفائدة، ولم تَحْلَ منه بعائدةٍ، ولو أفاد لم يكن حشوًا، ولم يُدْعَ لَغْوًا. وقد تراه . مع إطلاق هذا الاسم عليه . واقعًا من القَبُول أحسنَ موقع، ومُدْرِكًا من الرّضَى أجزلَ حظّ، وذاك لإفادته إيَّاك، على مجيئه مجيءَ ما لا مُعَوَّل في الإفادة عليه، ولا طائل للسامع لديه، فيكون مَثَلُه مَثَلَ الحَسَنةِ تَأتيك من حيث لم ترتقبها، والنافعةِ أتتك ولم تحتسبها، وربَّمَا رُزِقَ الطُّفَيْليُّ ظَرْفًا يحظَى به حتى يحلَّ محلّ الأضياف الذين وقعَ الاحتشاد لهم، والأحبابِ الذين وُثِقَ بالأُنس منهم وبهم.

الاستعارة

وأمَّا التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أنَّ الحُسْن والقُبْح لا يعترض الكلامَ بهما إلَّا من جهة المعاني خاصّةً، من غير أنْ يكون للألفاظ في ذلك نصيبٌ، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيدٌ وتصويبٌ.

أمَّا "الاستعارة"، فهي ضربٌ من التشبيه، ونَمَطٌ من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تَعِيه القلوب، وتُدركه العقول. وتُسْتَفتَى فيه الأفهامُ والأذهان، لا الأسماع والآذان.

وأمَّا "التطبيق"، فأمره أَبْيَنُ، وكونه معنويًّا أجْلَى وأظهر، فهو مقابلة الشيء بضدِّه، والتضادّ بين الألفاظ المركَّبة مُحال، وليس لأحكام المقابلة ثَمَّ مَجَال.

فَخُذ إليكَ الآن بيت الفرزدق الذي يُضْرَب به المثل في تَعَسُّفِ اللفظ:

ومَا مِثْلُهُ في الناسِ إلَّا مُمَلَّكًا

أبُو أُمِّهِ حيٌّ أبوه يُقاربه

فانظر أيُتَصَوَّر أنْ يكون ذمُّك للفظهِ من حيث أنَّك أنكرتَ شيئًا، من حروفه، أو صادفتَ وحشيًّا غريبًا، أو سُوقيًّا ضعيفًا؟ أم ليس إلّا لأنَّه لم يُرَتَّب الألفاظ في الذِّكْر، على مُوجب ترتُّب المعاني في الفكر، فكدَّ وكَدَّر، ومنع السامع أنْ يفهم الغرضَ إلَّا بأنْ يُقدِّم ويؤخّر، ثُمَّ أسرفَ في إبطال النِّظام، وإبعاد المرَام[20]، وصار كمن رَمَى بأجزاءٍ تتألّف منها صورةٌ، ولكن بعد أنْ يُراجَع فيها بابٌ من الهندسة، لفرط ما عادَى بين أشكالها، وشدّةِ ما خَالف بين أوضاعها.

وإذا وجدتَ ذلك أمرًا بيّنًا لا يُعارضك فيه شكٌّ، ولا يملكك معه امتراءٌ، فانظر إلى الأشعار التي أثنَوا عليها من جهة الألفاظ، ووصفوها بالسلامة، ونسبوها إلى الدَّماثة[21]، وقالوا: كأنَّها الماءُ جَرَيانًا، والهواءُ لُطفًا، والرياضُ حُسْنًا، وكأنَّها الرَّحيقُ مِزاجها التَّسْنِيم[22]، وكأنَّها الديباج الخُسْرُوانيّ في مَرامي الأبصار، ووَشْيُ اليمَنِ منشورًا على أذْرُع التِّجَار، كقوله:

ولَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجةٍ

ومَسَّح بالأركان مَنْ هو ماسحُ

وشُدَّت على حَدْب المهَارَى رِحَالُنا

ولم يَنْظُر الغادي الَّذِي هو رائحُ

أخذْنا بأطراف الأحاديث بَيْنَنا

وسَالَتْ بأعناق المطيّ الأباطحُ

ثُمَّ راجعْ فكرتَك، واشْحَذْ بصيرتَك، وأحسِنِ التأمُّل، ودع عنك التجوُّز في الرأي، ثُمَّ انظر هل تجدُ لاستحسانهم وحَمْدهم وثَنائهم ومَدحهم مُنْصَرَفًا، إلّا إلى استعارةٍ وقعت موقعَها، وأصابت غَرَضها، أو حُسن ترتيب تكاملَ معه البيانُ حتى وصَل المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع، واستقرَّ في الفهم مع وقوع العبارةِ في الأُذِن، وإلَّا إلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد، والفضل الذي هو كالزيادة في التحديد، وشيءٍ داخَلَ المعاني المقصودَة مداخلةَ الطفيليّ الذي يستثقل مكانهُ، والأجنبيّ الذي يُكره حُضوره، وسلامته من التقصير الذي يَفْتَقِر معه السامِعُ إلى تَطَلُّب زيادةٍ بقيتْ في نَفْس المتكلِّم، فلم يدلَّ عليها بلفظها الخاصّ بها، واعتمد دليلَ حال غير مُفْصِح، أو نيابةَ مذكور ليس لتلك النِّيابة بمُسْتَصْلَح.

وذلك أنَّ أوّل ما يتلقَّاك من محاسن هذا الشِّعر أنَّه قال:

ولمَّا قضينا من مِنًى كلَّ حاجة

فعبّر عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج من فُروضِها وسُنَنِها، من طريقٍ أمكنه أنْ يُقَصِّر معه اللفظ، وهو طريقة العموم، ثُمَّ نبّه بقوله:

ومسّح بالأركان مَن هو ماسحُ

على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر، ودليل المسيرِ الذي هو مقصوده من الشِّعر، ثُمَّ قال:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

فوصل بذِكْر مسح الأركان، ما وليه من زَمِّ الركاب وركوب الرُّكبان، ثُمَّ دلَّ بلفظة "الأطراف" على الصّفة التي يختصّ بها الرِّفاق في السَّفر، من التصرّف في فنون القولِ وشجون الحديث، أو ما هو عادة المتظرِّفين، من الإشارة والتلويح والرَّمْز والإيماء، وأنبأ بذلك عن طِيب النفوس، وقُوَّة النشاط، وفَضْلِ الاغتباط، كما تُوجبُه أُلفة الأصحاب وأَنَسةُ الأحباب، وكما يليق بحال مَن وُفِّق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حُسن الإياب، وتنسَّمَ روائح الأحبّة والأوطان، واستماع التهاني والتَّحايا من الخُلَّان والإخوان.

ثُمَّ زانَ ذلك كلَّه باستعارة لطيفةٍ طَبَّق فيها مَفْصِل التشبيه، وأفاد كثيرًا من الفوائد بلُطْف الوَحْي والتنبيه، فصرحّ أوّلًا بما أومأ إليه في الأخذ بأطراف الأحاديث، من أنَّهم تنَازعوا أحاديثهم على ظهور الرَّواحل، وفي حال التوجُّه إلى المنازل، وأخبر بعدُ بسرعة السير، ووَطَاءة الظَّهر، إذ جَعَل سلاسة سَيْرها بهم كالماء تسيل به الأباطح، وكان في ذلك ما يُؤكّد ما قبْله، لأنَّ الظُّهور إذا كانت وَطِيئةً وكان سيرها السَّيْرَ السهلَ السريع، زاد ذلك في نشاط الرُّكبان، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طِيبًا.

ثُمَّ قال: "بأعناق المطيّ"، ولم يقل "بالمطيّ"، لأنَّ السرعةَ والبُطءَ يظهران غالبًا في أعناقها، ويَبِين أمرهما من هَواديها وصدورِها، وسائِرُ أجزائها تستند إليها في الحركة، وتَتبعها في الثِّقَل والخفَّة، ويُعبِّر عن المَرَح والنشاط، إذا كانا في أنفسها، بأفاعيلَ لها خاصّة في العنق والرأس، وتَدُلّ عليهما بشمائل مخصوصةٍ في المقَاديم[23].

فقل الآن: هل بقيتْ عليك حَسَنَةٌ تُحِيل فيها على لفظة من ألفاظها حتَّى إنّ فَضْلَ تلك الحسنة يبقى لتلك اللفظة لو ذُكرتْ على الانفراد، وأُزيلتْ عن موقعها من نَظْم الشاعر ونسجه وتأليفه وترصيفه، وحتَّى تكون في ذلك كالجوهرة التي هي، وإنْ ازدادتْ حُسنًا بمصاحبة أخواتها، واكتستْ بهاءً بمُضَامَّة أترابها، فإنَّها إذا جُلِيتْ للعين فَرْدةً، وتُركتْ في الخيط فَذَّة، لم تعدم الفضيلة الذاتيَّة، والبهجةَ التي في نفسها مَطويَّة والشَّذْرةِ من الذهب تراها بصُحْبة الجواهر لها في القلادة، واكتنافها لها في عنق الغَادة، ووَصْلها بريقَ جَمرتها والتهابَ جَوْهَرها، بأنوار تلك الدُّرَر التي

تجاورها، ولألاء اللآلئ التي تُناظرها تزداد جمالًا في العين، ولُطْف موقِع من حقيقة الزين. ثُمَّ هي إنْ حُرِمتْ صُحبة تلك العقائل، وفَرَّقَ الدهرُ الخؤُون بينها وبين هاتيك النفائس، لم تَعْرَ من بَهْجتها الأصيلة، ولم تذهب عنها فضيلة الذَّهبية. كلَّا، ليس هذا بِقياس الشِّعر الموصوفِ بحُسن اللفظ، وإنْ كان لا يبعد أنْ يتخيّله مَنْ لا يُنعم النَّظر، ولا يُتمّ التدبُّر، بل حقُّ هذا المثل أنْ يوضع في نصرة بعض المعاني الحكمية والتشبيهية بعضًا، وازدياد الحسن فيها بأنْ يجامِعَ شكلٌ منها شكلًا، وأنْ يصل الذِّكرُ بين متدانيات في ولادة العقول إيَّاها، ومتجاوراتٍ في تنزيل الأفهام لها.

غَرَضُ المُؤلِّف

واعلمْ أنَّ غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته، والأساس الذي وضعته، أنْ أتوصّل إلى بيان أمر المعاني كيف تختلف وتتفق، ومن أين تجتمع وتفترق، وأُفصِّل أجناسها وأنْواعها، وأتتبّع خاصّها ومُشَاعَها، وأُبيِّن أحوالها في كرم مَنْصبِها من العقل، وتمكُّنَها في نِصَابه، وقُرْب رَحِمِها منه، أو بُعدها . حين تُنسب . عنه، وكَوْنِها كالحَلِيف الجارِي مجرى النَّسَبَ، أو الزَّنيم[24] الملصَق بالقوم لا يقبلونه، ولا يمتَعضون له ولا يَذُبُّون دونه.

وإنَّ من الكلام ما هو كما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز[25] الذي تختلف عليه الصُوَر وتتعاقب عليه الصناعات، وجُلُّ المعَوَّل في شرفه على ذاتهِ، وإنْ كان التصويرُ قد يَزِيد في قيمته ويرفع من قَدْره، ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من موادّ غير شريفة، فلها . ما دامت الصورة محفوظةً عليها لم تنتقض، وأثَر الصنعة باقيًّا معها لم يبطُل . قيمةٌ تغلو، ومنزلة تعلو، وللرغبات إليها انْصبابٌ، وللنفوس بها إعجاب، حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابَها، وضامَت الحادثاتُ[26] أربابها، وفجِئتْهم فيها بما يسلُبها حُسْنَها المُكتَسب بالصَّنعة، وجمالَها المستفادَ من طريق العَرضِ، فلم يبق إلَّا المادّة العارية من التصوير، والطِّينة الخالية من التشكيل سقطتْ قيمتها، وانحطَّتْ رتبتها، وعادتْ الرَّغبات التي كانت فيها زُهدًا، وأوسعتها عيونٌ كانت تطمح إليها إعراضًا دونها، وصَدًّا، وصارتْ كمن أحظاه[27] الجدُّ بغير فضلٍ كان يرجع إليه في نفسه، وقدَّمه البخت من غير معنًى يقضي بتقدّمه، ثُمَّ أفاق فيه الدهر عن رقدته، وتنبّه لغلطته، فأعاده إلى دِقّة أصله، وقلّة فضله.

وهذا غرضٌ لا يُنال على وجهه، وطَلِبةٌ لا تُدرَك كما ينبغي، إلَّا بعد مقدِّماتٍ تُقدَّم، وأصولٍ تُمهَّد، وأشياءَ هي كالأدوات فيه حقُّها أنْ تُجمع، وضروبٍ من القول هي كالمسافات دونه، يجب أنْ يُسَار فيها بالفكر وتُقْطَع.

وأوَّلُ ذلك وأوْلاه، وأحقّهُ بأنْ يستوفِيَهُ النَّظر ويتَقَصَّاه، القولُ على "التشبيه" و"التمثيل" و"الاستعارة"، فإنَّ هذه أصولٌ كبيرة، كأنَّ جُلَّ محاسن الكلام . إنْ لم نقل: كُلَّها . متفرّعة عنها، وراجعة إليها، وكأنَّها أقطابٌ تدور عليها المعاني في مُتصرَّفَاتها، وأقطارٌ تُحيط بها من جهاتها، ولا يَقْنع طالب التحقيق أنْ يقتصر فيها على أمثلة تُذكر، ونظائرَ تُعدُّ، نحو أنْ يُقال: "الاستعارة" مثل قولهم "الفكرة مُخُّ العمل"، وقوله:

وعُرِّيَ أفراسُ الصِّبَا وَرَوَاحِلُهْ[28]

وقوله: "السفَرُ ميزان القوم"[29]، وقول الأعرابي: "كانوا إذا اصطفُّوا سَفَرتْ بينهم السهام، وإذا تصافحوا بالسيوف فَغَرَ الحِمَام"، و"التمثيل" كقوله:

فإنك كَاللَّيْلِ الَّذِي هُو مُدْرِكِي[30]

ويؤتى بأمثلة . إذا حُقّق النَّظَر . كالأشياء يجمعها الاسم الأعمّ، وينفرد كلّ منها بخاصّةٍ، مَنْ لم يقف عليها كان قصيرَ الهمّة في طلب الحقائق، ضعيفَ المُنّة[31] في البَحْث عن الدقائق، قليلَ التَّوْقِ[32] إلى معرفة اللطائف، يرضى بالجُمَل والظواهر، ويَرَى أنْ لا يُطيل سَفَر الخاطر. ولعمري إنّ ذلك أروَحُ للنفس، وأقلُّ للشُّغْل، إلَّا أنّ مِنْ طلب الراحة ما يُعْقب تعبًا، ومِنَ اختيارِ ما تقلُّ معه الكُلْفة ما يُفْضِي إلى أشدّ الكُلفة، وذلك أنَّ الأمور التي تلتقي عند الجُملة وتتَبَاين لَدَى التفصيل، وتجتمع في جِذْمٍ[33] ثُمَّ يذهب بها التشعُّب ويقسمها قَبِيلًا بعدَ قبيل، إذا لم تُعْرَف حقيقة الحال في تلاقيها حيث التقتْ، وافتراقِها حيث افترقتْ، كان قياسُ مَنْ يحكم فيها . إذا توسَّط الأمرَ . قياسَ مَن أرادَ الحُكم بين رجلين في شرفهما وكرَم أصلهما وذهاب عِرْقهما في الفضل، ليعلم أيُّهما أقعد في السؤدد، وأحقُّ بالفخر، وأرسخ في أُرُومة المجد، وهو لا يعرف من نسبتهما أكثرَ من ولادة الأب الأعلى والجَدّ الأكبر، لجواز أنّ كلَّ واحد منهما قُرشيٌّ أو تَميميٌّ، فيكون في العجز عن أنْ يُبْرِم قضيةً في معناهما، ويبيّن فضلًا أو نقصًا في منتماهما . في حُكْم مَن لا يعلم أكثر من أنَّ كلَّ واحد منهما آدميٌّ، ذَكَر، أو خَلْقٌ مصوَّر.

الحقيقة والمجاز

واعلمْ أنَّ الذي يُوجبُه ظاهر الأمر، وما يَسْبِق إلى الفكر، أنْ يُبْدَأ بجملةٍ من القول في "الحقيقة" و"المجاز"، ويُتْبَعَ ذلك القولَ في "التشبيه" و"التمثيل"، ثُمَّ يُنسَّق ذِكْرُ "الاستعارة" عليهما، ويُؤْتَى بها في أثرهما. وذلك أنَّ "المجاز" أعمُّ من "الاستعارة"، والواجب في قضايا المراتب أنْ يُبدأ بالعامّ قبل الخاصّ، و"التشبيه" كالأصل في "الاستعارة"، وهي شَبِيهٌ بالفرع له، أو صورة مقتضبة من صُوَرِه إلَّا أنّ ههنا أمورًا اقتضت أنْ تقع البِدَاية بالاستعارة، وبيان صَدْرٍ منها، والتنبيهِ على طريق الانقسام فيها.

اعلمْ أنَّ "الاستعارة" في الجملة أنْ يكون للَّفظ أصلٌ في الوضع اللغويّ معروفٌ تدلُّ الشواهد على أنَّه اخْتُصَّ به حين وُضع، ثُمَّ يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلًا غيرَ لازمٍ، فيكون هناك كالعارِيَّة[34].

ثُمَّ إنَّها تنقسم أوّلًا قسمين:

أحدهُما: أنْ يكون لنقله فائدة.

والثاني: أنْ لا يكون له فائدة، وأنا أبدأ بذِكْر غير المفيد، فإنَّه قصيرُ الباع، قليل الاتِّساع، ثُمَّ أتَكلم على المُفيَد الذي هو المقصود.

الاستعارة غير المفيدة

وموضع هذا الذي لا يفيد نقله، حيث يكون اختصاصُ الاسم بما وُضع له من طريق أريدَ به التوسُّع في أوضاع اللغة، والتنوُّق في مراعاة دقائقَ في الفروق في المعاني المدلول عليها، كوضعهم للعضو الواحد أساميَ كثيرةً بحسب اختلاف أجناس الحيوان، نحوُ وضع "الشفة" للإنسان و"المشْفَر" للبعير و"الجحفلة" للفرس، وما شاكل ذلك من فروقٍ ربَّما وجُدت في غير لغة العرب وربَّما لم توجد، فإذا استعمل الشاعر شيئًا منها في غير الجنس الذي وُضِع له، فقد استعاره منه ونقله عن أصله وجَازَ به موضعَه، كقول العجّاج:

وفَاحمًا ومَرْسِنًا مُسَرَّجَا[35]

يعني أنْفًا يَبْرُق كالسِّراج، و"المَرْسِنُ" في الأصل للحيوان، لأنَّه الموضع الذي يقع عليه "الرسَن"[36] وقال آخر: يصف إبلًا:

تسمعُ للماءِ كصوتِ المِسْحَلِ

بين وَريدَيها وبَين الجَحْفَلِ[37]

فجعل للإبل "جحافل"، وهي لذوات الحوافر، وقال آخر:

وَالحَشْوُ من حَفَّانها كالحَنظلِ[38]

فأجرَى "الحَفَّان" على صغار الإبل، وهو موضوع لصغار النعام، وقال الآخر:

فبِتْنَا جُلوسًا لَدَى مُهرِنَا

نُنَزِّعُ من شَفَتيه الصَّفَارَا[39]

فاستعمل "الشَّفَة" في الفرس، وهي موضوعة للإنسان. فهذا ونَحْوه لا يفيدك شيئًا، لو لزمتَ الأصليّ لم يحصل لك، فلا فرق من جهة المعنى بين قوله "من شفتَيه" وقوله "من جَحْفلتيه" لو قاله، إنَّما يُعْطِيك كِلا الاسمين العضوَ المعلومَ فحسب، بل الاستعارة ههنا بأنْ تنقصك جزءًا من الفائدة أشبهُ، وذلك أنّ الاسم في هذا النحو، إذا نفيتَ عن نفسك دخولَ الاشتراك عليه بالاستعارة، دَلَّ ذِكْرُه على العضو وما هو منه، فإذا قلتَ "الشَّفَة" دلَّ على الإنسان، أعني يَدلّ على أنَّكَ قصدتَ هذا العضو من الإنسان دون غيره، فإذا توهَّمتَ جَرْيَ الاستعارة في الاسم، زالتْ عنها هذه الدلالة بانقلاب اختصاصها إلى الاشتراك. فإذا قلتَ "الشَّفَة" في موضع قد جرى فيه ذِكْرُ الإنسان والفرس، دخل على السامع بعض الشبهة، لتجويزه أنْ تكون استعرتَ الاسم للفرس، ولو فرضنا أنْ تُعدَم هذه الاستعارة من أصلها وتُحظَر، لمَا كان لهذه الشُبهة طريق على المخاطب، فاعرفه.

الاستعارة المفيدة

وأمَّا "المفيد" فقد بانَ لك باستعارته فائدةٌ ومعنًى من المعاني وغَرَضٌ من الأغراض، لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك. وجُملة تلك الفائدة وذلك الغرض "التشبيه"، إلَّا أنَّ طُرُقه تختلف حتى تفوت النهايةَ، ومذاهبه تتشعَّب حتى لا غاية، ولا يمكن الانفصالُ منه إلَّا بفصول جمّة، وقسمة بعدَ قسمة. وأنا أرى أنْ أقتصر الآن على إشارة تُعرِّفُ صورته على الجملة بقَدْر ما تراه، وقد قَابَلَ خلافَهُ الذي هو "غير المفيد"، فيتمّ تصوُّركَ للغرض والمراد، فإنَّ الأشياء تزداد بيانًا بالأضداد.

ومثاله قولنا: "رأيتُ أسدًا"، وأنتَ تعني رجلًا شجاعًا، و"بحرًا"، تريد رجلًا جوادًا و"بدرًا" و"شمسًا"، تريد إنسانًا مضيء الوَجْه متهَلّلًا و"سللتُ سيفًا على العدوّ" تريد رجلًا ماضيًا في نُصرتكَ، أو رأيًا نافذًا وما شاكل ذلك، فقد استعرتَ اسم الأسد للرجل، ومعلومٌ أنَّك أفدتَ بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة، وإيقاعُك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدّته، وسائر المعاني المركوزة في طبيعته، ممَّا يعود إلى الجرأة. وهكذا أفدتَ باستعارة "البحر" سَعَته في الجُود وفَيْضَ الكفّ، و"بالشمس والبدر" ما لهما من الجمال والبهاء والحسن المالئ للعيون الباهِر للنَّواظر.

اعلمْ أنّ الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضَّرْب دون الأول، وهي أمَدُّ ميدانًا، وأشدُّ افتتانًا، وأكثر جريانًا، وأعجب حسنًا وإحسانًا، وأوسعُ سَعَةً وأبعد غَوْرًا، وأذهبُ نَجْدًا في الصِّناعة وغَوْرًا، من أنْ تُجمعَ شُعَبها وشُعُوبها، وتُحصَر فنُونُها وضُرُوبُها، نعم، وأسحَرُ سِحْرًا، وأملأ بكلِّ ما يملأ صَدْرًا، ويُمتع عقلًا، ويُؤْنِس نفسًا، ويوفر أُنْسًا، وأهدَى إلى أنْ تُهدِي إليك أبدًا عَذَارَى قد تُخُيِّرَ لها الجمال، وعُنِيَ بها الكمال وأنْ تُخرج لك من بَحْرها جواهرَ إنْ باهَتْها الجواهرُ مَدَّت في الشرف والفضيلة باعًا لا يقصُر، وأبدتْ من الأوصاف الجليلة محاسنَ لا تُنكَر، وردَّتْ تلك بصُفرة الخجل،

ووَكَلتها إلى نِسْبتها من الحَجَر وأنْ تُثير من مَعْدِنها تِبْرًا لم ترَ مثلَه، ثُمَّ تصوغ فيها صياغاتٍ تُعطّل الحُلِيَّ، وتُريك الحَلْيَ الحقيقي، وأنْ تأتيك على الجُملة بعقائل يأْنس إليها الدين والدنيا، وفضائل لها من الشرف الرُّتْبة العليا، وهي أجلُّ من أنْ تأتيَ الصفةُ على حقيقة حالها، وتستوفِيَ جملةَ جمالها.

ومن الفضيلة الجامعة فيها أنَّها تُبرز هذا البيان أبدًا في صورة مُستجَدَّةٍ تزيد قَدْرَه نُبْلًا، وتُوجب له بعد الفضلِ فضلًا، وإنَّكَ لَتجِدُ اللفظة الواحدة قد اكتسبتَ بها فوائدَ، حتى تراها مكرّرة في مواضعَ، ولها في كلِّ واحد من تلك المواضع شأنٌ مفردٌ، وشرفٌ منفردٌ، وفضيلةٌ مرموقة، وخِلَابةٌ مومُوقة.

خصائص الاستعارة المفيدة

ومن خصائصها التي تُذكَر بها، وهي عنوان مناقبها، أنَّها تُعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتَّى تُخرجَ من الصَّدَفة الواحدة عِدّةً من الدُّرَر، وتَجْنِيَ من الغُصْن الواحد أنواعًا من الثَّمر، وإذا تأمَّلتَ أقسام الصَّنعة التي بها يكون الكلام في حَدِّ البلاغة، ومعها يستحِق وصفَ البراعة، وجدتَها تفتقر إلى أنْ تُعيرها حُلاها، وتَقصُرُ عن أنْ تُنازعها مداها، وصادفتها نجومًا هي بدرها، ورَوضًا هي زَهْرها، وعرائسَ ما لم تُعِرْها حَلْيها فهي عواطل، وكواعبَ ما لم تُحَسِّنها فليس لها في الحُسْن حظٌّ كامل.

فإنَّك لترى بها الجمادَ حيًّا ناطقًا، والأعجمَ فصيحًا، والأجسامَ الخُرسَ مُبينةً، والمعاني الخفيّةَ باديةً جليّةً، وإذا نظرتَ في أمر المقاييس وجدتَها ولا ناصر لها أعزُّ منها، ولا رَوْنَق لها ما لم تَزِنْها، وتجدُ التشبيهات على الجملة غير مُعْجِبَةٍ ما لم تكُنْها، إنْ شئتَ أرتكَ المعانيَ اللطيفةَ التي هي من خبايا العقل، كأنَّها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون، وإنْ شئتَ لطَّفت الأوصاف الجسمانيَّة حتى تعود رُوحانيَّة لا تنالها إلاّ الظنون.

وهذه إشارات وتلويحات في بدائعها، وإنَّما ينجلي الغرض منها ويَبِين، إذا تُكُلِّم على التفاصيل، وأُفرِدَ كُلُّ فنّ بالتمثيل.

الاستعارة تعتمد على التشبيه

اعلمْ أنَّ الاستعارة تعتمد التشبيهَ أبدًا، وقد قلتُ: إنّ طُرُقه تختلف، ووعدتُك الكلام فيه، وهذا الفصل يعطي بعضَ القول في ذلك بإذن الله تعالى، وأنا أريد أنْ أُدرِّجها من الضَّعف إلى القوَّة، وأبدأ في تنزيلها بالأدنى، ثُمَّ بما يزيد في الارتفاع، لأنَّ التقسيم إذا قُصِد في خارجٍ من الأصل، فالواجب أنْ يُبدَأ بما كان أقلَّ خروجًا منه، وأدنى مدًى في مفارقته.

وإذا كان الأمر كذلك، فالذي يستحِقُّ بحكم هذه الجملة أنْ يكون أوّلًا من ضروب الاستعارة، أنْ يُرَى معنى الكلمة المستعارة موجودًا في المُستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة، إلّا أنّ لذلك الجنس خصائصَ ومراتبَ في الفضيلة والنقص والقوّة والضعف، فأنتَ تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه.

ومثاله استعارةُ "الطيران" لغير ذي الجناح، إذا أردتَ السرعة، و"انقضاض الكواكب" للفرس إذا أسرع في حركته من علوّ، و"السباحة" له إذا عدَا عدوًا كان حاله فيه شبيهًا بحالة السابح في الماء. ومعلومٌ أنَّ الطيران والانقضاضَ والسباحةَ والعَدْوَ كلّها جنس واحد من حيث الحركة على الإطلاق، إلَّا أنَّهم نظروا إلى خصائص الأجسام في حركتها، فأفردوا حركةَ كلّ نوع منها باسم، ثُمَّ إنَّهم إذا وجدوا في الشيء في بعض الأحوال شبهًا من حركةِ غير جنسه، استعاروا له العبارة من ذلك الجنس، فقالوا في غير ذي الجناح "طار"، كقوله:

وطِرْتُ بِمُنْصُلي في يَعْمَلاتٍ[40]

وكما جاء في الخبر: "كُلّما سمع هَيْعَةً طار إليها".

ومن ذلك أنَّ "فاض" موضوع لحركة الماء على وجه مخصوص، وذلك أن يفارق مكانَهُ دَفْعَةً فينبسط، ثُمَّ إنَّه استعير للفجر، كقوله:

كالفَجرِ فَاضَ على نُجُوم الغَيْهبِ[41]

لأن للفجر انبساطًا وحالةً شبيهة بانبساط الماء وحركته في فَيْضِهِ.

فأمَّا استعارة "فاض" بمعنى الجُود، فنوع آخر غير ما هو المقصود ههنا، لأنَّ القصد الآن إلى المُستعار الذي تُوجَد حقيقة معناه من حيث الجنس في المستعار له.

وكذلك قول المتنبي:

نَثَرْتَهُمُ فَوقَ الأُحْيَدِبِ نَثْرَةً

كما نُثِرَتْ فوق العَرُوسِ الدَّراهِمُ

وكان ذلك استعارة، لأنَّ النثر في الأصل للأجسام الصغار، كالدراهم والدنانير والجواهر والحبوب ونحوها، لأنَّ لها هيئةً مخصوصةً في التفرق لا تَأْتِي في الأجسام الكبار، ولأنَّ القصد "بالنثر" أنْ تُجمَعُ أشياء في كفّ أو وِعاء، ثُمَّ يقع فعلٌ تتفرّق معه دَفْعَةً واحدةً، والأجسام الكبار لا يكون فيها ذلك، لكنَّه لمّا اتَّفق في الحرب تساقُطُ المنهزمين على غير ترتيب ونظام، كما يكون في الشيء المنثور، عبَّر عنه بالنثر، ونسب ذلك الفعل إلى الممدوح، إذْ كان هو سبب ذلك الانتثار، فالتفرُّق الذي هو حقيقة "النثر" من حيث جنس المعنى وعمومِه، موجودٌ في المُستعار له بلا شبهة.

ويبيّنه أنَّ "النَّظْم" في الأصل لجمع الجواهر وما كان مثلها في السلوك، ثُمَّ لمّا حصل في الشَّخْصَين من الرجال أنْ يجمعهما الحاذِق المبدعُ في الطعن في رُمْحٍ واحد ذلك الضربَ من الجمع، عبَّر عنه "بالنَّظْم"، كقولهم: "انتظمهما برمحه"، وكقوله:

قالوا ويَنْظُمُ فَارِسَيْن بطَعْنَةٍ

وكان ذلك استعارةً، لأنَّ اللفظة وقعتْ في الأصل لمَا يُجْمع في السُّلوك من الحبوب والأجسام الصغار، إذ كانت تلك الهيئة في الجمع تَخُصُّها في الغالب، وكان حصولها في أشخاص الرجال من النادر الذي لا يكاد يقع.

ضربٌ آخر من الاستعارة القريبة من الحقيقة

ومن الاستعارة القريبة من الحقيقة قولهم: "أثْرَى فلانٌ من المجد"، وَ"أَفْلَسَ من المروءة"، وكقوله:

إنْ كانَ أغْنَاها السلُوُّ، فَإنَّني

أمْسَيْتُ من كَبِدِي ومِنْهَا مُعْدِمَا

وذلك أنَّ حقيقة "الإثراء من الشيء"، كثرته عندك. ووصفُ الرجل بأنَّه كثير المجْد أو قليل المروءَة، كوصفه بأنَّه كثير العلم أو قليل المعرفة، في كونه حقيقة. وكذلك إذا قلتَ: "أثْرَى من الشوق" أو "الوَجْد" أو "الحُزْن".

وضربٌ ثانٍ يُشبه هذا الضرب الذي مضى، وإنْ لم يكن إيَّاه. وذلك أنْ يكون الشبهُ مأخوذًا من صِفةٍ هي موجودةٌ في كلِّ واحدٍ من المُستعَار له والمُستعارِ منه على الحقيقة. وذلك قولُك: "رأيتُ شمسًا"، تريد إنسانًا يتهلَّل وجهه كالشمس. فهذا له شَبَهٌ باستعارة "طار" لغير ذي الجناح وذلك أنَّ الشبهَ مُراعًى في التلألؤ، وهو كما تعلم موجودٌ في نفس الإنسان المُتهلِّل، لأنّ رَوْنقَ الوجه الحُسْن من حيث حسِّ البصر، مجانسٌ لضوءِ الأجسام النيّرة، وكذلك إذا قلتَ: "رأيتُ أسدًا" تريد رجلًا، فالوصف الجامعُ بينهما هو الشجاعة، وهي على حقيقتها موجودة في الإنسان، وإنَّما يقع الفرقُ بينه وبين السَّبع الذي استعرتَ اسمه له فيها، من جهة القُوَّةِ والضعفِ والزيادة والنقصان، وربَّما ادُّعي لبعض الكُماةِ[42] والبُهَم مساواةُ الأسد في حقيقة الشجاعة التي عمود صورتها انتفاءُ المخافة عن القلب حتى لا تخامرَه، وتُفرِّقَ خواطرَه وتُحَلِّلَ عزيمته في الإقدام على الذي يباطشه

ويريد قَهْرَه، وربَّما كفّ الشُّجاع عن الإقدام على العدوِّ لا لخوف يملك قلبه ويَسْلُبه قِوَاه، ولكنْ كما يكُفُّ المنهيُّ عن الفعل، لا تخونه في تعاطيه قوّةٌ، وذلك أنَّ العاقل من حيث الشرَّع منهيٌّ عن أنْ يُهلك نفسه، أتَرَى أنّ البطلَ الكميَّ إذا عَدِمَ سلاحًا يقاتل به، فلم ينهَض إلى العدوّ، كان فاقدًا شجاعته وبأسَه، ومتبرّئًا من النَّجْدةِ التي يُعْرَفُ بها.

الفَرْقُ بين الضَّربين من الاستعارة

ثُمَّ إنَّ الفرق بين هذا الضرب وبين الأول أنَّ الاشتراك ههنا في صفة توجَد في جنسين مختلفين، مثلُ أنّ جنس الإنسان غير جنس الشمس، وكذلك جنسهُ غيرُ جنس الأسد، وليس كذلك "الطيران" و"جريُ الفرس"، فإنَّهما جنس واحد بلا شبهة، وكلاهما مُرورٌ وقطعٌ للمسافة. وإنَّما يقع الاختلاف بالسرعة، وحقيقة "السرعة" قلّة تخلُّلِ السكون للحركات، وذلك لا يوجبُ اختلافًا في الجنس.

فإنْ قلتَ: فَإذَنْ لا فرق بين استعارة "طَار" للفرس وبين استعارة "الشَفَة" للفرس، فهلَّا عددتَ هذا في القسم اللَّفْظِيّ غير المفيد؟ ثُمَّ إنَّك إنْ اعتذرتَ بأنّ في "طَارَ" خصوصَ وصفٍ ليس في "عَدَا" و"جَرَى"، فكذلك في "الشَّفَة" خصوصُ وصفٍ ليس في "الجحفلة" فالجواب: إنّي لم أعدَّه في ذلك القسم لأجل أن خصوص الوصف في "طار" مراعًى في استعارته للفرس وأما استعارة اسم لعضوٍ نحو "الشفة" و"الأنف" فلم يراعَ فيه خصوص الوصف.

وضربٌ ثالثٌ، وهو الصَّميم الخالص من "الاستعارة"، وحَدُّه أنْ يكون الشبَهُ مأخوذًا من الصُّور العقليَّة، وذلك كاستعارة "النُّور" للبيان والحجة الكاشفة عن الحق، المزِيلة للشكّ النافية للرَّيْب، كما جاء في التَّنزيل من نحو قوله عزَّ وجلَّ: {وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ} [الأعراف: 157]، وكاستعارة "الصراط" للدِّين في قوله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: 6]، و{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: 52]" فإنَّك لا تشُكُّ في أنَّه ليس بين "النور" والحُجة ما بين "طيران الطائر" و"جري الفرس" من الاشتراك في عموم الجنس، لأنَّ "النور" صفة من صفات الأجسام محسوسةٌ، والحُجة كلامٌ وكذا ليس بينهما ما بين "الرجل" و"الأسد" من الاشتراك في طبيعةٍ

معلومةٍ تكون في الحيوان كالشجاعة. فليس الشبه الحاصل من "النور" في البيان والحُجة ونحوهما، إلّا أنّ القلب إذا وردت عليه الحُجَّة صار في حالة شبيهة بحال البصر إذا صادف النور، ووُجِّهت طلائعُه نحوه، وجال في مَصَارفه وانتشر، وانبَثَّ في المسافة التي يسافر طَرْفُ الإنسان فيها. وهذا كمَا تعلم شَبهٌ لستَ تحصل منه على جنس ولا على طبيعة وغريزة، ولا على هيئة وصورة تدخل في الخِلقة، وإنَّما هو صورة عقليَّة.

واعلمْ أنَّ هذا الضرب هو المنزلةُ التي تبلغ عِندها الاستعارة غايةَ شَرَفِها، ويتَّسع لها كيف شاءت المجال في تفنُّنها وتصرُّفها، وها هنا تَخْلُص لطيفةً روحانيَّةً، فلا يبصرها إلَّا ذوو الأذهان الصافية، والعقول النافذة، والطباع السليمة، والنفوس المستعدّة لأنْ تَعِيَ الحكمةَ، وتعرف فَصْل الخطاب.

مثال الأصل الأَوَّل
من الاستعارة

فمثال ما جرى على (الأصل الأول) ما ذكرتُ لك من استعارة "النور" للبيان والحُجّة، فهذا شَبَهٌ أُخِذ من محسوسٍ لمعقول، أَلَا ترى أنَّ "النور" مشاهَدٌ محسوس بالبصر، والبيانُ والحُجّةُ ممَّا يؤدّيه إليك العقل من غير واسطة من العين أو غيرها من الحواس. وذلك أنَّ الشَّبهَ ينصرف إلى المفهوم من الحروف والأصوات، ومدلولُ الألفاظ هو الذي ينوِّر القلب لا الألفاظ. هذا و"النور" يُستعار للعِلم نفسه أيضًا والإيمان، وكذلك حُكم "الظلمة"، إذا استعيرت للشُّبهة والجهل والكفر، لأنَّه لا شُبْهةَ في أنَّ الشُّبَهَ والشكوك من المعقول، ووجه التشبيه أنَّ القلب يحصُل بالشبهة والجهلِ، في صفة البصر إذا قَيّده دُجَى الليل فلم يجدْ منصرَفًا وإن استعيرت للضلالة والكفر، فلأنّ صاحبهما كمَن يسعَى في الظلمة فيذهَب في غير الطريق، وربَّما دُفِع إلى هُلْك وتردَّى في أُهْوِيَّة[43].

مثال الأصل الثاني
من الاستعارة

ومثال "الأصل الثاني"، وهو أخذ الشَّبه من المحسوس للمحسوس، ثُمَّ الشبهُ عَقليٌّ، قولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم: "إيَّاكم وخَضْراءَ الدِّمَن"، الشبه مأخوذ للمرأة من النبات كما لا يخفى وكلاهما جسمٌ، إلَّا أنَّه لم يُقصَد بالتشبيه لونُ النبات وخُضرته، ولا طعمه ولا رائحته، ولا شكله وصورته، ولا ما شاكل ذلك، ولا ما يُسمَّى طبعًا كالحرارة والبرودة المنسوبتين في العادة إلى العقاقير وغيرها ممَّا يُسَخِّن بدن الحيوان ويَبْرُدُ بحصوله فيها، ولا شيءٌ من هذا الباب بل القصدُ شَبَهٌ عقليٌّ بين المرأة الحسناءِ في المنبت السوء، وبين تلك النابتة على الدِّمنة، وهو حُسْنُ الظاهر في رأى العين مع فساد الباطن، وطيبُ الفَرع مع خبث الأصل.

ويظهر من ههنا (أصلٌ آخر) وهو أنّ اللفظة الواحدة تُستعار على طريقين مختلفين، ويُذْهَب بها في القياس والتشبيه مذهبين، أحدهما يُفضِي إلى ما تناله العيون، والآخر يُومِئُ إلى ما تُمثِّله الظنون.

ومثال ذلك قولك: "نجوم الهُدَى"، تعني أصحابَ الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنَّه استعارةٌ توجب شَبَهًا عقليًا، لأنّ المعنى أنّ الخَلْق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اهتدوا بهم في الدين كما يهتدي السارون بالنجوم، وهذا الشبه باقٍ لهم إلى يوم القيامة، فبالرجوع إلى علومهم وآثارِهم وفِعالهم وهَدْيهم تُنال النجاة من الضَّلالة، ومَن لم يطلب الهُدَى من جهتهم فقد حُرم الهدَى ووقع في الضَّلال، كما أنّ مَن لم ينظر إلى النجوم في ظلام اللّيل ولم يتلقَّ عنها دِلالتها على المسالك التي تُفضي إلى العِمارة ومعادن السلامة وخالفَها، وقع في غير الطريق، وصار بَترْكِهِ الاهتداءَ بها إلى الضلال البعيد، والهُلْك المُبيد.

فالقياس على النجوم في هذا، ليس على حدِّ تشبيه المصابيح بالنجوم، أو النيران في الأماكن المتفرقة، لأنَّ الشَّبَه هناك من حيث الحسُ والمشاهدة، لأنَّ القصدَ إلى نفس الضوء واللَّمعان، والشَّبه ههنا من حيث العَقْل، لأنَّ القصد إلى مقتضَى ضَوْءِ النجوم وحُكْمه وعائِدته، ثُمَّ ما فيها من الدلالة على المنهاج، والأمْنِ من الزيغ عنه والاعوجاج، والوصول بهذه الجُملة منها إلى دار القرار ومَحَلّ الكرامة نسأل الله تعالى أنْ يرزقنا ذلك، ويُديم توفيقنا للزوم ذلك الاهتداء، والتصرفِ في هذا الضياء، إنَّه عزَّ وجلَّ وليُّ ذلك والقادر عليه.

وممَّا لا يكون الشبه فيه إلَّا عقليًّا، قولُنا في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم "مِلْحُ الأنام"، وهو مأخوذ من قوله عليه السلام: "مَثَلُ أصحابي كمثل الملح في الطَّعام، لا يصْلح الطَّعام إلَّا بالملح".

فأنتَ تَعْلَم أنْ لا وجه ههنا للتشبيه إلَّا من طريق الصُّورة العقليَّة، وهو أنَّ الناس يصلُحُونَ بهم كما يصلُح الطعام بالملح، والشَّبَهُ بين صلاح العامّة بالخاصّة وبين صلاح الطعام بالملح، لا يُتصوَّر أنْ يكون محسوسًا. وينطوي هذا التشبيهُ على وجوب موالاةِ الصحابة رضي الله عنهم، وأنْ تُمْزَج محبَّتُهم بالقلوب والأرواح، كما يُمزَج الملح بالطعام، فباتِّحاده به ومداخلته لأجزائه يَطِيبُ طعمه، وتَذهب عنه وَخَامته، ويصير نافعًا مغذِّيًا، كذلك بمحبّة الصحابة رضي الله عنهم تصلُح الاعتقادات، وتنتفي عنها الأوصاف المذمومة، وتطيب وتغذو القلوب، وتُنَمَّى حياتُها، وتُحفَظ صحتها وسلامتها، وتَقيها الزَّيغَ والضلالَ والشَّكّ والشبهةَ والحيرةَ، وما حُكْمُه في حال القلب من حيث العقل، حُكْمُ الفساد الذي يعرض لمزاج البدن من أكل الطعام الذي لم يُصْلح بالملح، ولم تنتفِ عنه المضار التي من شَأْنِ الملح أنْ يُزيلها، وعلى ذلك جاء في صفتهم أنّ: "حُبُّهم إيمانٌ وبُغْضَهم نِفَاقٌ". هذا، ولا معنى لصَلاح الرَّجُل بالرَّجُلِ، إلّا صلاح نِيَّتهُ واعتقاده، ومحالٌ أنْ تصلُح نِيَّتك واعتقادك بصاحبك وأنْتَ لا تراه مَعْدِن الخير ومَعَانَهْ، وموضعَ الرُّشد ومكانَه، ومن علمتَه كذلك، مازَجَتْك محبّتُه لا محالة، وسِيط وُدُّه بلحمك ودمك، وهل تحصل من المحبّة إلّا على الطاعة والموافقة في الإرادة والاعتقاد، قياسُه قِياس الممازجة بين الأجسام، أَلَا تراك تقول: "فلانٌ قريبٌ من قلبي"، تريد الوِفاق والمحبَّة.

أقسام التشبيه

اعلمْ أنَّ الشيئين إذا شُبِّه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضَرْبين:

أحدهما: أنْ يكون من جهة أمرٍ بيِّنٍ لا يحتاج إلى تأَوُّل.

والآخر: أنْ يكون الشبه محصّلًا بضَرْب من التأَوُّل.

فمثال الأول: تشبيهُ الشيء بالشيء من جهة الصُّورة والشَّكْل، نحوَ أنْ يُشبَّه الشيء إذا استدار بالكرةِ في وجه، وبالحلقة في وجه آخر، وكالتشبيه من جهة اللّون، كتشبيه الخدود بالورد، والشَّعر بالليل، والوجه بالنهار، وتشبيهِ سِقْط النار بعين الديك، وما جرى في هذا الطريق أو جمعِ الصُّورة واللون معًا، كَتشبيه الثُّريَّا بعنقود الكَرْم المنوَّر، والنرجس بمَدَاهن دُرٍّ حشوهن عقيق، وكذلك التشبيه من جهة الهيئة نحو: أنَّه مستوٍ منتصبٌ مديدٌ، كتشبيه قامة الرَّجل بالرُّمْح، والقَدِّ اللطيفِ بالغصن، ويدخل في الهيئةِ حالُ الحركات في أجسامها، كتشبيه الذاهب على الاستقامة بالسَّهم السديد، ومَنْ تأخذه الأريحيّةُ فَيهتزُّ بالغصن تحت البارح[44]، ونحو ذلك، وكذلك كلّ تشبيهٍ جَمَعَ بين شيئين فيما يدخل تحت الحواسّ، نحو تشبيهك صوتَ بعض الأشياء بصوت غيره، كتشبيه أطيطِ[45] الرحل بأصوات الفراريج، كما قال:

كأنّ أصواتَ، من إيغالهنّ بنا،

أواخرِ المَيْس إنقاضُ الفَرَاريج[46]

وأشباه ذلك من الأصوات المشبهة له، وكتشبيه بعض الفواكه الحلوة بالعسَل والسُكَّر، وتشبيهِ الليّن الناعم بالخزِّ، والخشن بالمِسْحِ[47]، أو رائحةِ بعض الرياحين برائحة الكافور، أو رائحة بعضها ببعضٍ كما لا يُخفَى، وهكذا التشبيه من جهة الغريزة والطباع، كتشبيه الرَّجُل بالأسد في

الشجاعة، وبالذئب في النُّكْر. والأخلاقُ كلُّها تدخُل في الغريزةُ نحو السَّخاء والكرمَ واللؤم، وكذلك تشبيه الرجل بالرجل في الشدة والقوة وما يتصل بهما.

فالشبه في هذا كلّه بَيّنٌ لا يجري فيه التأوُّل، ولا يُفتقَر إليه في تحصيله. وأيُّ تأوُّل يجري في مشابهة الخدّ للورد في الحمرة، وأنت تراها ههنا كما تراها هناك؟ وكذلك تعلم الشَّجاعة في الأسد كما تعلمها في الرَّجُل.

ومثالُ الثاني: وهو الشبه الذي يَحْصُل بضَرْب من التأوُّل، كقولك: "هذه حُجّةٌ كالشمس في الظهور"، وقد شبّهتَ الحُجةَ بالشمس من جهة ظهورها، كما شبَّهتَ فيما مَضَى الشيء بالشيء من جهة ما أردتَ من لون أو صورة أو غيرهما. إلَّا أنَّك تعلَم أنَّ هذا التشبيه لا يتمّ لكَ إلَّا بتأوُّل، وذلك أنْ تقول: حقيقة ظُهور الشمس وغيرِها من الأجسام أنْ لا يكون دونها حجابٌ ونحوُه، ممَّا يحول بين العين وبين رؤيتها، ولذلك يظهر الشيءُ لك إذا لم يكن بينك وبينه حجابٌ، ولا يظهر لك إذا كنتَ من وراء حجاب.

فممَّا يُشبه الذي بدأتُ به في قُرب المأخذ وسهولة المأتَى، قوله في صفة الكلام: "ألفاظه كالماء في السلاسة"، و"كالنسيم في الرِّقة"، و"كالعسل في الحلاوة"، يريدون أنَّ اللفظ لا يستغلِق ولا يشتبه معناه ولا يصعُب الوُقوف عليه، وليس هو بغريب وَحْشيّ يُستكرَه، لكَوْنِه غيرَ مألوف، أو ليس في حروفه تكريرٌ وتنافرٌ يُكَدُّ اللسانُ من أجلهما، فصارت لذلك كالماء الذي يسوغُ في الحلق، والنسيم الذي يسري في البدن، ويتخلَّل المسالك اللطيفة منه، ويُهدي إلى القلب رَوْحًا، ويُوجد في الصدر انشراحًا، ويُفيد النفس نشاطًا، وكالعسل الذي يَلَذُّ طعمه، وتَهِشُّ النفس له، ويميل الطبع إليه، ويُحَبُّ ورودُه عليه. فهذا كلّه تأوُّلٌ، وردُّ شيء إلى شيء بِضَرْبٍ من التلطف، وهو أدخل قليلًا في حقيقة التأوُّل، وأقوى حالًا في الحاجة إليه، من تشبيه الحُجّة بالشمس.

وإذ قد عرفتَ الفَرْقَ بين الضَّربين، فاعلمْ أنَّ التشبيه عامٌّ والتمثيل أخصّ منه، فكلّ تمثيلٍ تشبيهٌ، وليس كلّ تشبيهٍ تمثيلًا، فأنتَ تقول في قول قيس بن الخطيم:

وقد لَاحَ في الصُّبح الثريَّا لمَنْ رَأى

كَعُنْقُودِ مُلَّاحِيَّةٍ حِينَ نَوَّرا[48]

"إنَّه تشبيه حسن"، ولا تقول: "هو تمثيل". وكذلك تقول: "ابنُ المعتزّ حَسَنُ التشبيهات بديعُها"، لأنَّك تعني تشبيهه المبصَرات بعضَهَا ببعض، وكلَّ ما لا يوجد الشبه فيه من طريق

التأوُّل، كقوله:

كأنَّ عُيونَ النَّرْجِسِ الغضّ حَوْلها

مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهنَّ عقيقُ[49]

التشبيه وانقسامه إلى قسمين

اعلمْ أنَّ الذي أوجب أنْ يكون في التشبيه هذا الانقسام، أنّ الاشتراك في الصفة يقع مرّةً في نفسها وحقيقة جنسها، ومرةً في حُكْمٍ لها ومقتضًى. فالخَدُّ يشارك الورد في الحُمْرة نفسها وتجدها في الموضعين بحقيقتها واللفظ يشارك العسل في الحلاوة، لا من حيث جنسه، بل من جهة حكمٍ وأمرٍ يقتضيه، وهو ما يجده الذائق في نفسه من اللَّذَّة، والحالة التي تحصل في النفس إذا صادفت بحاسّة الذَّوق ما يميل إليه الطبع وَيَقَعُ منه بالموافقة، فلمَّا كان كذلك، احتيج لا محالة . إذا شُبّه اللفظ بالعسل في الحلاوة . أنْ يبيَّن أنَّ هذا التشبيه ليس من جهة الحلاوة نفسها وجنسها، ولكنْ من مقتضًى لها، وصفةٍ تتجدَّد في النفس بسببها، وأنَّ القصد أنْ يُخبَر بأنَّ السامع يجد عندَ وقوع هذا اللفظ في سمعه حالةً في نفسه، شبيهةً بالحالة التي يجدها الذائق للحلاوةِ من العسل، حتَّى لو تمثَّلت الحالتان للعيون، لكانتا تُرَيان على صورة واحدة، ولَوُجدتا من التناسب على حدّ الحُمرة من الخدّ، والحُمرة من الورد.

الشَّبَهُ العقليُّ يُنزع من عدَّة أُمور

ثُمَّ إنَّ هذا الشَّبَه العقلي ربَّما انتُزع من شيء واحد، كما مضى انتزاع الشَّبه للفظ من حلاوة العسل وربَّما انتزع من عِدَّة أمورٍ يُجْمَع بعضها إلى بعض، ثُمَّ يُستخرَج من مجموعها الشَبَهُ، فيكون سبيلهُ سبيلَ الشيئين يُمزَج أحدهما بالآخر، حتى تحدُث صورة غير ما كان لهما في حال الإفراد، لا سبيل الشيئين يُجمَع بينهما وتُحفَظ صورتهما.

ومثالُ ذلك قوله عزَّ وجلَّ: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة: 5]، الشبهُ مُنتزَع من أحوال الحمار، وهو أنَّه يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم ومستودَعُ ثَمَر العقول، ثُمَّ لا يُحسّ بما فيها ولا يَشْعر بمضمونها، ولا يفرِّق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء، ولا من الدَّلالة عليه بسبيل، فليس له ممَّا يحمل حظٌّ سوى أنَّه يثْقُلُ عليه، ويكُدُّ جنبيه، فهو كما ترَى مُقْتضَى أمورٍ مجموعةٍ، ونتيجةٌ لأشياءَ أُلِّفت وقُرِنَ بعضها إلى بعض.

وبيانُ ذلك: أنَّه احتيج إلى أنْ يراعَى من الحمار فعلٌ مخصوص، وهو الحمل، وأنْ يكون المحمول شيئًا مخصوصًا، وهو الأسفار التي فيها أماراتٌ تدلّ على العلوم، وأنْ يُثلَّثَ ذلك بجهل الحمار

ما فيها، حتَّى يحصل الشبه المقصود،. ثُمَّ إنَّه لا يحصلُ من كلّ واحدٍ من هذه الأمور على الانفراد، ولا يُتصوّر أن يقال إنه تشبيه بعد تشبيه، من غير أن يقف الأول على الثّاني، ويدخل الثاني في الأول، لأنَّ الشَّبه لا يتعلَّق بالحَمْل حتَّى يكون من الحمار، ثُمَّ لا يتعلَّق أيضًا بحَمْلِ

الحمار حتَّى يكون المحمول الأسفار، ثُمَّ لا يتعلَّق بهذا كلّه حتى يقترن به جَهْل الحمار بالأسفار المحمولة على ظهره . فما لم تجعله كالخيط الممدود، ولم يُمزَج حتى يكون القياسُ قياسَ أشياءَ يُبالَغ في مِزاجها حتى تَتَّحد وتخرُجَ عن أنْ تُعرَف صُورةُ كلِّ واحد منها على الانفراد، بل تبطُل صُوَرها المفردةُ التي كانت قبل المِزاج، وتحدُث صورةٌ خاصةٌ غير اللواتي عهِدتَ، وتحصُلُ مَذَاقَةٌ لو فرضتَ حصولها لك في تلك الأشياء من غير امتزاج، فرضتَ ما لا يكون لم يتمَّ المقصود . ولم تحصل النتيجة المطلوبةُ، وهي الذمُّ بالشقاء في شيء يتعلَّق به غرضٌ جليلٌ وفائدةٌ شريفةٌ، مع حِرمان ذلك الغرض وعدمِ الوصول إلى تلك الفائدة، واستصحابِ ما يتضمَّن المنافع العظيمةَ والنِّعَم الخطيرةَ، من غير أنْ يكون ذلك الاستصحاب سببًا إلى نَيْلِ شيء من تلك المنافع والنِّعَم.

التشبيه المَعقود على أمرين

ومثال ما يجيء فيه التشبيه معقودًا على أمرين إلَّا أنَّهما لا يتشابكان هذا التشابك قولُهم: "هو يَصْفُو ويَكْدِر" و"يَمُرُّ ويحلُو" و"يشُجُّ وَيأْسُو"[50]، و"يُسرِجُ ويُلجم"، لأنَّك وإنْ كنتَ أردتَ أنْ تجمع له الصِّفتين، فليست إحداهما ممتزجة بالأخرى، لأنَّك لو قلتَ: "هو يصفو"، ولم تتعرَّض لذِكْر "الكدر" أو قلت: "يحلو"، ولم يسبق ذكر "يَمُرُّ"، وجدتَ المعنى في تشبيهك له بالماء في الصَّفاء وبالعسل في الحلاوة بحاله وعلى حقيقته، وليس كذلك الأمر في الآية لأنَّك لو قلتَ: "كالحِمار يَحْمِل أسفارًا"، ولم تعتبر أنْ يكون جهل الحمار مقرونًا بحمله، وأنْ يكون متعدِّيًا إلى ما تَعدَّى إليه الحَمْل، لم يتحصَّل لك المغزَى منه.

وكذلك لو قلتَ: "هُمْ كالحمار في أنَّه يجهل الأسفار"، ولم تشرط أنْ يكون حمله الأسفارَ مقرونًا بجهله لها لكان كذلك. وكذلك لو ذكرتَ الحَمْل والجهل مطلقين، ولم تجعل لهما المفعول المخصوص الذي هو الأسفار، فقلتَ: "هو كالحمار في أنَّه يحمل ويجهل"، وقعتَ من التشبيه المقصود في الآية بأبعد البُعد. والنكتةُ أنَّ التشبيه بالحَمْل للأسفار، إنَّما كان بشَرْط أنْ يقترن به الجهل، ولم يكن الوصف بالصَّفاء والتشبيه بالماء فيه بشرط أنْ يقترن به الكدر، ولذلك لو قلتَ: "يصفو ولا يكدر" لم تزد في صميم التشبيه وحقيقته شيئًا، وإنَّما استدمتَ الصِّفة كقولك: "يصفو أبدًا وعلى كلّ حال".

المماثلة عند أبي أحمد العسكري

وذكر أبو أحمد العسكري أنَّ هذا النحوَ من الكلام يُسمّى: "المماثلة"، وهذه التسمية تُوهم أنَّه شيءٌ غيرُ المراد "بالمَثل" و"التمثيل"، وليس الأمر كذلك، كيف وأنتَ تقول: "مَثَلُك مَثَلُ مَنْ يُقدِّم رِجْلًا ويُؤخِّر أخرى؟" وَوِزَانُ هذا أنَّك تقول: "زيدٌ الأسدُ"، فيكون تشبيهًا على الحقيقة وإنْ كنتَ لم تُصرّح بحرف التشبيه ومثله أنَّك تقول: "أنت ترقم في الماء"، و"تضرب في حديد بارد"، و"تنفخ في غير فَحَم"، فلا تذكُر ما يدلُّ صريحًا على أنَّك تُشَبّه، ولكنَّك تعلم أنَّ المعنى على قولك: "أنت كمن يرقم في الماء، وكمن يَضْربُ في حديدٍ بارد، وكمن ينفخ في غير فَحَم"، وما أشبه ذلك ممَّا تجيء فيه بمشَّبهٍ به ظاهرٍ تقع هذه الأفعال في صِلَة اسمه أو صفته.

واعلمْ أنَّ "المَثَل" قد يُضرَبُ بجُمَلٍ لا بدَّ فيها من أنْ يتقدّمها مذكورٌ يكون مشبَّهًا به، ولا يُمكن حذفُ المشبَّه به والاقتصار على ذِكْر المشبَّه، ونقلُ الكلام إليه حتى كأنَّه صاحبُ الجملة، إلَّا أنَّه مُشبَّهٌ بمَن صفته وحُكمه مضمون تلك الجملة.

وبيان هذا أنَّ قول النبي صلى الله عليه وسلم: "النَّاسُ كإبلٍ مِئة لا تكادُ تجدُ فيها راحلةً"، لا بدّ فيه من المحافظة على ذِكْر المُشبَّه به الذي هو "الإبل"، فلو قلتَ: "الناس لا تجد فيهم راحلة" أو "لا تجد في الناس راحلة"، كان ظاهرَ التعسُّف.

واعلمْ أنّ ممَّا اتَّفق العقلاءُ عليه، أنَّ "التمثيل" إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكَسَبها مَنْقَبةً، ورفع

من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صَبَابةً[51] وكَلَفًا، وقَسَر الطِّباع على أنْ تُعطيها محبّةً وشَغَفًا.

فإنْ كان مدحًا، كان أبْهَى وأفخم، وأنبلَ في النفوسَ وأعظم، وأهزَّ للعِطْف، وأسْرع للإلف، وأجلب للفَرح، وأغلب على المُمْتَدَح، وأوجب شفاعةً للمادح، وأقضى له بغُرِّ المواهب المنائح، وأسْيَر على الألسن وأذكرَ، وأولى بأنْ تَعْلَقه القلوب وأجدر.

وإنْ كان ذمًّا، كان مسُّهُ أوْجَعَ، ومِيسَمُه ألذع، ووقعُه أشده، وَحدُّه أحَدّ.

وإنْ كان حِجابًا، كان بُرهانه أنور، وسلطانه أقهر، وبَيَانه أبْهر.

وإنْ كان افتخارًا، كان شَأْوُه أمدّ، وشَرَفه أجَدّ، ولسانه ألَدّ.

وإنْ كان اعتذارًا، كان إلى القَبُول أقرب، وللقلوب أخْلَب، وللسَّخائم أسَلّ، ولغَرْب الغَضب أفلَّ، وفي عُقَد العُقود أنْفَث، وعلى حُسن الرجوع أبْعث.

ما لا يُدْرَك إلَّا بالفكر في تحصيله

هذا وإنْ توقفتَ في حاجتك أيُّها السامع للمعنى إلى الفكر في تحصيله، فهل تشكّ في أنَّ الشاعر الذي أدّاه إليكَ، ونشر بَزَّه[52] لديك، قد تحمّل فيه المشقّة الشديدة، وقطع إليه الشُّقَّة البعيدة، وأنَّه لم يصل إلى دُرِّه حتى غاص، ولم ينل المطلوب حتى كابَدَ منه الامتناع والاعتياص؟ ومعلومٌ أنَّ الشيء إذا عُلم أنَّه لم يُنَل في أصله إلَّا بعد التَّعب، ولم يُدرَك إلَّا باحتمال النَّصَب، كان للعلم بذلك من أمره من الدعاء إلى تعظيمه، وأَخْذ الناس بتفخيمه، ما يكونَ لمباشرة الجهد فيه، وملاقاةِ الكربِ دونه. وإذا عثرتَ بالهُوَيْنَا على كنزٍ من الذهب، لم تُخرجك سُهولةُ وجوده إلى أنْ تَنْسَى جملةً أنَّه الذي كدَّ الطالب، وحمّل المتاعب، حتى إنْ لم تكُنْ فيك طبيعةٌ من الجُود تتحكَّم عليك، ومحبّة للثناء تستخرج النفيس من يديك، كان من أقوى حجج الضَّنّ الذي يخامر الإنسان أنْ تقول: "إنْ لم يكدَّني فقد كدَّ غيري"، كما يقول الوارث للمال المجموع عفوًا إذا لِيمَ على بخله به، وفرطِ شُحّه عليه: "إنْ لم يكنْ كَسْبِي وكدِّي، فهو كَسْب أبي وجدي، ولئن لم أَلْقَ فيه عناءً، لقد عانَى سَلَفِي فيه الشدائد، ولقُوا في جَمْعِهِ الأمرَّين، أَفَأُضيِّع ما ثَمَّرُوه، وأُفَرِّق ما جمعوه، وأكون كالهادم لما أُنفِقَتِ الأعمارُ في بنائه، والمُبيد لما قُصِرت الهمَمُ على إنمائه؟ ".

تشبيه مُركَّب من شيئين

وممَّا يكثر فيه التفصيل ويقوَى معناه فيه، ما كان من التشبيه مركَّبًا من شيئين أو أكثر، وهو ينقسم قسمين:

أحدهما: أنْ يكون شيئًا يُقدّره المشبِّه ويَضَعَه ولا يكون.

ومثال ذلك تشبيه النرجس بمداهن دُرٍّ حشوهنَّ عقيق[53]، وتشبيه الشَّقيقِ بأعلامِ ياقوت نُشِرتْ على رِماح من زَبَرْجَد[54]، لأنَّك في هذا النحو تُحصّل الشبه بين شيئين تُقدّر اجتماعَهما على وجهٍ مخصوص وبشرطٍ معلومٍ، فقد حصَّلته في النرجس من شكل المدَاهن والعقيق، بشرط أنْ تكون المداهن من الدُرّ، وأنْ يكون العقيق في الحَشْوِ منها، وكذلك اشترطت هيئة الأعلام، وأنْ تكون من الياقوت، وأنْ تكون منشورَةً على رِماح من زبرجد، فبكَ حاجةٌ في ذلك إلى مجموع أمورٍ، لو أخللتَ بواحدٍ منها لم يحصل الشَّبه. وكذلك لو خالفتَ الوجَه المخصوصَ في الاجتماع والاتصال بَطَل الغَرَض، فكما بكَ حاجة إلى أنْ يكون الشكلُ شَكْلَ المُدْهُنِ، وأنْ يكون من الدُّرّ وأنْ يكون معه العقيقُ، فبكَ أيضًا فَقْرٌ إلى أنْ يكون العقيقُ في حَشْوِ المداهن، وعلى هذا القياس.

والقسم الثاني: أنْ تعتبر في التشبيه هيئةً تَحصُل من اقتران شيئين، وذلك الاقترانُ ممَّا يُوجد ويكون، ومثاله قوله:

غَدَا والصبحُ تحتَ اللَّيل بادٍ

كطِرْفٍ أشهبٍ مُلْقَى الجِلالِ[55]

قَصَدَ الشبه الحاصل لك إذا نظرتَ إلى الصبح والليل جميعًا، وتأمّلتَ حالهما معًا، وأراد أنْ يأتي بنظيرٍ للهيئة المشاهَدة من مقارنة أحدهما الآخر، ولم يُرِدْ أنْ يُشبّه الصبحَ على الانفراد والليلَ

على الانفراد، كما لم يقصِد الأول أنْ يُشبّه الدارة البيضاء من النرجس بمُدْهُن الدُّر، ثُمَّ يستأنفَ تشبيهًا للثانية بالعقيق، بل أراد أنْ يُشبّه الهيئة الحاصلة من مجموع الشكلين، من غير أنْ يكون بَيْنٌ في البَيْن. ثُمَّ إنَّ هذا الاقتران الذي وُضع عليه التشبيه ممَّا يوُجد ويُعْهَدُ، إذ ليس وجود الفَرَس الأشهب قد ألقَى الجُلَّ، من المُعْوِز فيقالَ إنَّه مقصورٌ على التقدير والوهم. فأمَّا الأوّل فلا يتعدَّى التوهُّم وتقديرَ أنْ يُصنَع ويُعْمَل، فليس في العادة أنْ تُتّخذ صورةٌ أعلاها ياقوت على مقدار العَلَم، وتحت ذلك الياقوت قِطَعٌ مطاوِلةٌ من الزبرجد كهيئة الأرماح والقامات وكذلك لا يكون ههنا مُداهنُ تُصنَع من الدُرّ، ثُمَّ يوضع في أجوافها عقيق. وفي تشبيه الشَّقيق زيادة معنًى يُباعِد الصورةِ من الوجود، وهو شرطه أنْ تكون أعلامًا منشورةً، والنَّشر في الياقوت وهو حجرٌ، لا يُتَصَوَّر موجودًا.

وينبغي أنْ تعلم أنَّ الوجهَ في إلقاء الجُلّ، أنْ يريد أنَّه أداره عن ظهره، وأزاله عن مكانه، حتى تكشَّف أكثرُ جسده، لا أنَّه رمى به جملةً حتى انفصل منه، لأنَّه إذا أراد ذلك، كان قد قصد إلى تشبيه الصُّبح وحده من غير أنْ يفكِّر في الليل، ولم يشاكل قولَه في أول البيت: "والصبح تحت الليل بادٍ".

التشبيه المتعدِّد والفَرق بينه وبين المُركّب

اعلم أنِّي قد قدّمتُ بيانَ المركَّب من التشبيه، وههنا ما يُذكَر مع الذي عرَّفتك أنَّه مُركَّب ويُقرَن إليه في الكُتب، وهو على الحقيقة لا يستحقّ صفة التركيب، وذلك أنْ يكون الكلام معقودًا على تشبيه شيئين بشيئين ضربةً واحدةً، إلاّ أنَّ أحدهما لا يُداخل الآخر في الشَّبه، ومثاله في قول امرئ القيس:

كأنَّ قُلُوبَ الطَّير، رَطْبًا ويابسًا،

لَدَى وَكْرِهَا العُنّابُ والحشَفُ البَالي[56]

وذلك أنَّه لم يقصِد إلى أنْ يجعل بين الشيئين اتّصالًا، وإنَّما أراد اجتماعًا في مكانٍ فقط. كيف؟ ولا يكون لمضامَّة الرَّطْب من القلوب اليابسَ هيئةٌ يُقصَد ذِكْرُها، أو يُعنَى بأمرها، كما يكون ذلك لتباشيرِ الصُّبح في أثناء الظلماء، وكون الشَّقِيقة على قَامتها الخضراء، فيودِّيَ ذلك الشبهَ الحاصلَ من مُداخلة أحد المذكورين الآخرَ واتّصاله به، اجتماعُ الحشَف البالي والعُنّاب. كيف؟ ولا فائدة لأنْ ترى العُنّاب مع الحشَف، أكثر من كونهما في مكان واحد، ولو أنَّ اليابسة من القُلوب كانت مجموعةً ناحيةً، والرطبة كذلك في ناحية أخرى، لكان التشبيه بحاله. وكذلك لو فرَّقت التشبيه فقلت: "كأنّ الرَّطب من القلوب عُنّابٌ، وكأنّ اليابس حَشَفٌ بالٍ"، لم ترَ أحدَ التشبيهين موقوفًا في الفائدة على الآخر.

وقد يكون في التشبيه المُركَّب ما إذا فضضتَ تركيبَهُ وجدتَ أحد طرفيه يخرُج عن أنْ يصلح تشبيهًا لِما كان جاء في مقابلته مع التركيب.

وقد يكون الشيء منه إذا فُضَّ تركيبه استوى التشبيه في طَرفيه، إلَّا أنَّ الحال تتغيَّر، ومثال ذلك قول الشاعر:

وكأنَّ أجرام النُّجوم لوامعًا

دُرَرٌ نُثِرْنَ على بِساطٍ أزرقِ

فأنت وإنْ كنتَ إذا قلتَ: "كأنَّ النجوم دُرَرٌ، وكأنَّ السماء بساطٌ أزرق"، وجدتَ التشبيه مقبولاً معتاداً مع التفريق، فإنَّكَ تعلم بُعْدَ ما بين الحالتين، ومقدارَ الإحسانَ الذي يذهب من البين، وذلك أنَّ المقصودَ من التشبيه أنْ يُرِيَك الهيئةَ التي تملأ النواظر عَجباً وتستوقف العيون وتستنطق القلوب بذِكْر الله تعالى من طُلوع النجوم مؤتلفةً مُفْتَرِقةً في أديم السماء وهي زرقاءُ زُرْقَتها الصافية التي تخدع العين، والنجوم تتلألأ وتبرُق في أثناء تلك الزرقة، ومَنْ لك بهذه الصورة إذا فرَّقتَ التشبيه، وأزلتَ عنه الجمع والتركيب؟ وهذا أظهر من أنْ يَخْفَى.

الفَرْق بين الاستعارة والتمثيل

اعلمْ أنَّ من المقاصد التي تقع العناية بها أنْ نُبيّن حالَ "الاستعارةِ" مع "التمثيل"، أهي هو على الإطلاق حتى لا فرق بين العبارتين، أمْ حدُّها غيرُ حدِّه إلَّا أنَّها تتضمّنه وتَتَّصل به؟ فيجب أنْ نُفرِد جملةً من القول في حالها مَع التَّمثيل.

قد مضى في "الاستعارة" أنَّ حدّها يكون للّفظ اللُّغوي أصلٌ، ثُمَّ يُنقَل عن ذلك الأصل على الشرط المتقدِّم، وهذا الحدّ لا يجيء في الذي تقدَّم في معنى التمثيل، من أنَّه الأصل في كونه مَثَلًا وتمثيلًا، وهو التشبيه المنتزَع من مجموع أمور، والذي لا يُحصّله لك إلَّا جملةٌ من الكلام أو أكثر، لأنَّك قد تجد الألفاظَ في الجُمل التي يُعقَد منها جاريةً على أصولها وحقائقها في اللغة.

وإذا كان الأمر كذلك، بَانَ أنَّ "الاستعارة" يجب أنْ تُفيد حُكمًا زائدًا على المراد بالتمثيل، إذ لو كان مرادُنا بالاستعارة هو المراد بالتمثيل، لوَجب أنْ يصحّ إطلاقُها في كلّ شيء يُقال فيه إنَّه تمثيلٌ ومَثَل.

والقول فيها إنّها دِلالة على حُكمٍ يَثْبُتُ للّفظ، وهو نقلُه عن الأصل اللغويّ وإجراؤه على ما لم يوضع له. ثُمَّ إنَّ هذا النقل يكون في الغالب من أجل شَبَهٍ بين ما نُقِلَ إليه وما نُقِلَ عنه.

وبيان ذلك ما مضى من أنَّك تقول: "رأيتُ أسدًا"، تريد رجلًا شبيهًا به في الشجاعة و"ظِبيةً" تريد امرأة شبيهة بالظبية. فالتشبيه ليس هو "الاستعارة" ولكنَّ الاستعارة كانت من أجل التشبيه، وهو كالغرض فيها، وكالعلّة والسبب في فِعْلها.

فإنْ قلت كيف تكون الاستعارة من أجل التشبيه، والتشبيه يكون ولا استعارةَ؟ وذلك إذا جئتَ بحرفه الظاهر فقلت: "زيد كالأسد؟"

فالجواب: أنَّ الأمر كما قلتَ، ولكنّ التشبيه يحصُل بالاستعارة على وجه خاصٍّ وهو المبالغة. فقولي: "من أجل التشبيه"، أردتُ به من أجل التشبيه على هذا الشَّرط، وكما أنَّ التشبيه الكائنَ على وجه المبالغة غَرَضٌ فيه وعِلَّة، كذلك الاختصار والإيجاز غَرَضٌ من أغراضها. أَلَا ترى أنَّك تُفيد بالاسمِ الواحدِ الموصوفَ والصفةَ والتشبيهَ والمبالغةَ، لأنَّك تُفيد بقولك: "رأيت أسدًا"، أنَّك رأيت شجاعًا شبيهًا بالأسد، وأنّ شَبَهه به في الشجاعة على أتمّ ما يكون وأبلغِه، حتى إنَّه لا ينقص عن الأسد فيها. وإذا ثبت ذلك، فكما لا يصحّ أنْ يقال: "إنَّ الاستعارة هي الاختصار والإيجاز على الحقيقة، وأنّ حقيقتها وحقيقتهما واحدة"، ولكنْ يُقال: إنَّ الاختصار والإيجاز يحصلان بها، أو هما غرضان فيها، ومن جُملة ما دعا إلى فِعْلِها، كذلك حُكمُ التشبيه معها، فإذا ثبتَ أنَّها ليستْ التشبيهَ على الحقيقة، كذلك لا تكون التمثيلَ على الحقيقة، لأنَّ التمثيلَ تشبيهٌ إلَّا أنَّه تشبيهٌ خاصٌّ، فكلُّ تمثيلٍ تشبيهٌ، وليس كلُّ تشبيهٍ تمثيلًا.

الاستعارة من شأنها أنْ تُسْقِط ذِكْر المُشبَّه

وإذْ قد ثبت هذا الأصل، فاعلمْ أن ها هنا أصلًا آخر يُبنَى عليه، وهو أنَّ الاستعارة وإنْ كانت تعتمد التشبيه والتمثيلَ، وكان التشبيهُ يقتضي شيئين مشبَّهًا ومشبَّهًا به، وكذلك التمثيل، لأنَّه كما عرفتَ تشبيهٌ إلَّا أنَّه عقليٌّ، فإنَّ الاستعارةِ من شأنها أنْ تُسقِطَ ذكرَ المُشبَّه من البَيْنِ وتطرحه، وتدَّعَي له الاسمَ الموضوعَ للمُشبَّه به، كما مضى من قولك: "رأيتُ أسدًا"، تريد رجلًا شجاعًا و"وردتُ بحرًا زاخرًا"، تريد رجلًا كثير الجُود فائضَ الكفّ و"أبديتُ نورًا"، تريد عِلمًا وما شاكل ذلك. فاسم الَّذِي هو المُشبَّه غير مذكورٍ بوجه من الوجوه كما ترى، وقد نقلتَ الحديثَ إلى اسم المُشبَّه به، لقَصْدك أنْ تبالغ، فتضع اللَّفظ بحيث يُخيّل أنَّ معك نَفْس الأسد والبحر والنور، كي تُقوّي أمر المشابهة وتشدّده، ويكون لها هذا الصنيع حيث يقع الاسم المستعار فاعلًا أو مفعولًا أو مجرورًا بحرف الجرّ أو مضافًا إليه، فالفاعل كقولك: "بدا لي أسدٌ"، و"انبرى لي لَيْثٌ" و"بدا نُورٌ" و"ظهرتْ شمسٌ ساطعة" و"فاض لي بالمواهبِ بحرٌ"، كقوله:

وَفِي الجِيرةِ الغَادِين من بَطن وَجْرةٍ

غزالٌ كَحِيلُ المُقلتَيْن رَبِيبُ[57]

والمفعولُ كما ذكرتَ من قولك: "رأيتُ أسدًا"، والمجرور نحو قولك: "لا عَارَ إنْ فَرّ من أسدٍ يَزْأر"، والمضاف إليه كقوله:

يَا ابن الكواكب من أئِمّة هاشمٍ

والرُجَّحِ الأحسابِ والأحْلامِ

ليس كلّ مُشبّه به يجوز تسليط الاستعارة عليه

وإذْ قد عرفتَ هذه الجملةَ، فينبغي أنْ تعلم أنَّه ليس كلّ شيء يجيء مشبَّهًا به بكافٍ أو بإضافة "مِثْلَ" إليه، يجوز أنْ تسلّط عليه الاستعارة، وتُنفِذ حكمَها فيه، حتَّى تنقله عن صاحبه وتدّعيه للمشبَّه على حدِّ قولك: "أبديتُ نورًا" تريد عِلمًا، و"سللتُ سيفًا صارمًا"، تريد رأيًا نافذًا، وإنَّما يجوز ذلك إذا كان الشَّبه بين الشيئين ممَّا يقرُب مأخذه وَيَسْهُل متناوَلُه، ويكونُ في الحالِ دليلٌ عليه، وفي العُرف شاهدٌ له، حتى يُمكِّن المخاطَبَ إذا أطلقتَ له الاسم أنْ يعرف الغَرَضَ ويعلم ما أردتَ.

فكلُّ شيء كان من الضَّرب الأوَّل الذي ذكرتُ أنَّكَ تكتفي فيه بإطلاق الاسم داخلًا عليه حرف التشبيه نحو قولهم: "هو كالأسد"، فإنَّك إذا أدخلتَ عليه حُكم الاستعارة وجدتَ في دليل الحال، وفي العرف ما يُبيِّن غرضك، إذ يُعْلَم إذا قلتَ: "رأيتُ أسدًا"، وأنتَ تريد الممدوح، أنّك قصدتَ وصفَه بالشجاعة، وإذا قلتَ: "طلعت شمسٌ"، أنت تريد امرأة، عُلِم أنَّك تريد وَصْفها بالحُسْنِ، وإنْ أردتَ الممدوح عُلِم أنَّك تقصِد وصفَه بالنَّباهة والشرف.

فأمَّا إذا كان من الضرب الثاني الذي لا سبيل إلى معرفة المقصود من الشبه فيه إلَّا بعد ذِكْر الجُمَل التي يُعقد بها التمثيل، فإنَّ الاستعارة لا تدخله، لأنَّ وجه الشبه إذا كان غامضًا لم يَجُز أنْ تقتسر الاسم وتَغْصِب عليه موضعه، وتنقله إلى غير ما هو أهله من غير أنْ يكون معك شاهدٌ يُنبئُ عن الشَّبه.

فلو حاولتَ في قوله:

فإنَّك كالليلِ الَّذِي هو مُدْرِكِي

أنْ تُعامل الليلَ معاملةَ الأسد في قولك: "رأيتُ أسدًا"، أعني أنْ تُسقط ذِكْر الممدوح من البَيْن، لم تجد له مذهبًا في الكلام، ولا صادفتَ طريقةً تُوَصِّلك إليه، لأنَّك لا تخلُو من أحد أمرين: إمَّا أنْ تحذفَ الصفةَ وتقتصر على ذِكْر الليل مجرّدًا فتقول: "إنْ فررتُ أظلّني اللَّيل"، وهذا محال، لأنَّه ليس في الليل دليل على النكتة التي قصدها من أنَّه لا يفوتُه وإنْ أبعد في الهرب، وصار إلى أقصى الأرض، لِسعة مُلكه وطول يده، وأنّ له في جميع الآفاق عاملًا وصاحبَ جيش ومُطيعًا لأوامره يردُّ الهارب عليه ويسوقه إليه، وغايةُ ما يتأتَّى في ذلك أنْ يريد أنَّه إنْ هرب عنه أظلمت عليه الدنيا، وتحيَّر ولم يهتدِ، فصار كمن يحصُل في ظُلمة الليل، وهذا شيء خارج عن الغَرَض، وكلامنا على أنْ تستعير الاسم ليؤدَّى به التشبيه الذي قُصِد في البيت، ولم أُرِد أنَّه لا تُمكن استعارته على معنًى ما، ولا يَصْلُح في غرض من الأغراض.

وإنْ لم تحذف الصفة، وجدت طريق الاستعارة فيه يؤدِّي إلى تعسّف، إذْ لو قلتَ: "إنْ فررتُ منك وجدتُ ليلًا يُدْركني، وإنْ ظننتُ أنَّ المنتأى واسعٌ والمهرَبَ بعيدٌ"، قلتَ ما لا تقبله الطِّباع، وسلكتَ طريقةً مجهولةً، لأنَّ العُرف لم يَجْرِ بأنْ يُجعل الممدوحُ ليلًا هكذا.

فأمّا قولهم: إنَّ التشبيه بالليل يتضمَّن الدِّلالة على سُخطه، فإنَّه لا يُفسح في أنْ يجري اسم الليل على الممدوحِ جَرْيَ الأسدِ والشمس ونحوهما، وإنَّما تصلُح استعارة الليل لمَن يُقصَد وصفُه بالسَّواد والظلمة، كما قال ابن طباطبا:

بَعثْتَ معي قِطْعًا من الليل مُظلمَا

يعني زِنْجيًّا قد أنفذه المخاطَبُ معه حين انصرف عنه إلى منزله. هذا وربّما . بل كلَّما . وجدتَ ما إنْ رُمْتَ فيه طريقةَ الاستعارة، لم تجد فيه هذا القَدْر من التمحُّل والتكلُّف أيضًا، وهو كقولِ النبيّ صلى الله عليه وسلم: "الناسُ كإبلٍ مئة لا تجدُ فيها راحلة"، قُل الآن من أيّ جهة تصِلُ إلى الاستعارة ههنا، وبأيّ ذريعة تَتذرَّع إليها؟ هل تقدر أنْ تقول: "رأيتُ إبلًا مئة لا تجد فيها راحلة" في معنى: "رأيتُ ناسًا" أو "الإبل المئة التي لا تجد فيها راحلةً"، تريد الناس، كما قلتَ: "رأيتُ أسدًا" على معنى "رجلًا كالأسد" أو "الأسد"، على معنى: "الذي هو كالأسدُ؟".

القسم التخييلي من المعانـي

وأمَّا القسم التخييلي، فهو الذي لا يمكن أنْ يُقال إنَّه صِدقٌ، وإنَّ ما أثبتَه ثابت وما نفاه منفيّ. وهو مفتنٌّ المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يُحصَر إلَّا تقريبًا، ولا يُحاط به تقسيمًا وتبويبًا. ثُمَّ إنَّه يجيء طبقاتٍ، ويأتي على درجاتٍ، فمنه ما يجيء مصنوعًا قد تُلُطِّف فيه، واستعين عليه بالرِفق والحِذق، حتى أُعطِيَ شَبَهًا من الحقّ، وغُشِّي رَوْنَقًا من الصّدق، باحتجاج تُمُحِّل، وقياسٍ تُصُنِّع فيه وتُعُمِّلَ، ومثالُه قول أبي تمام:

لا تُنكري عَطَلَ الكَريم من الغِنَى

فالسَّيلُ حَرْبٌ للمكانِ العالي

فهذا قد خَيَّل إلى السامع أنَّ الكريم إذا كان موصوفًا بالعلوّ، والرِّفعة في قَدْره، وكان الغِنَى كالغَيْث في حاجة الخَلْق إليه وعِظَمِ نَفْعه، وجب بالقياس أنْ يزِلَّ عن الكريم، زَلِيلَ السَّيل عن الطَّوْد العظيم. ومعلومٌ أنَّه قياسُ تخييلٍ وإيهامٍ، لا تحصيلٍ وإحكام، فالعلّة في أنَّ السيل لا يستقرّ على الأمكنة العالية، أنَّ الماء سيَّال لا يثبت إلَّا إذا حصل في موضع له جوانبُ تَدْفعه عن الانصباب، وتمنعه عن الانسياب، وليس في الكريم والمال، شيء من هذه الخِلال.

وأقوى من هذا في أنْ يُظنَّ حقّا وصدقًا، وهو على التخيّل قوله:

الشيبُ كُرْهٌ، وكُرْهٌ أنْ يفارِقَني

أَعْجِبْ بشيءٍ على البَغْضَاء مَوْدودِ

هو من حيث الظاهر صدق وحقيقة، لأنَّ الإنسان لا يُعجبه أنْ يُدركه الشيب، فإذا هو أدركه كره أنْ يُفارقه، فتراه لذلك يُنكره ويتكرَّهه على إرادته أنْ يدومَ له، إلَّا أنَّك إذا رجعتَ إلى التحقيق، كانت الكراهةُ والبغضاء لاحقةً للشيب على الحقيقة، فأمَّا كونه مُرَادًا ومودودًا، فمتخيَّلٌ فيه، وليس بالحقِ والصدق، بل المودود الحياةُ والبقاءُ، إلَّا أنَّه لمَّا كانت العادةُ جاريةً بأنّ في زوال رؤية الإنسان للشيب، زوالَه عن الدنيا وخروجه منها، وكان العيش فيها محبَّبًا إلى النفوس، صارتْ محبّته لمَا لا يَبْقَى له حتى يبقى الشيب، كأنّها محبّةٌ للشيب.

من ذلك صَنِيعهم إذا أرادوا تفضيلَ شيء أو نَقْصَه، ومدحه أو ذمَّه، فتعلّقوا ببعض ما يشارِكُه في أوصافٍ ليستْ هي سبب الفضيلة والنقيصة، وظواهرِ أُمورٍ لا تُصحّح ما قصدوه من التهجين والتزيين على الحقيقة، كما تراه في باب الشيب والشباب، كقول البحتري:

وبَيَاضُ البازيِّ أصدقُ حسنًا

إنْ تأمّلتِ من سَواد الغُرابِ[58]

وليس إذا كان البياضُ في البازي آنَقَ في العين وأخلق بالحسن من السواد في الغراب، وجب لذلك أنْ لا يُذَمَّ الشيبُ ولا تنفِرُ منه طباع ذوي الألباب، لأنَّه ليس الذنب كلَّه لتحوُّل الصِّبْغِ وتبدُّل اللون، ولا أتَت الغواني ما أتت من الصدّ والإعراض لمجرَّد البياض، فإنَّهن يرينه في قُباطيّ[59] مصر فيأنسن، وفي أنوار الرَّوض وأوراق النرجس الغضّ فلا يعبِسْن، فما أنكرن ابيضاض شَعَر الفتى لنفس اللون وذاته، بل لذهاب بَهجاته، وإدباره في حياته. وإنَّك لترى الصُّفرة الخالصةَ في أوراق الأشجار المتناثرة عند الخريف وإقبال الشتاء وهبوب الشَّمال، فتكرهها وتنفرُ منها، وتراها بعينها في إقبال الربيع في الزَّهر المتفتِّق، وفيما ينْشِئه ويَشِيه من الديباج المُؤْنق، فتجد نفسَك على خِلاف تلك القضيّة، وتمتلئ من الأريحيّة، ذاك لأنَّك رأيتَ اللونَ حيثُ النماءُ والزيادة، والحياةُ المستفادة، وحيث أبشرتْ أرواح الرياحين، وبشّرت أنواع التحاسين، ورأيتَه في الوقت الآخَر حين ولَّت السعود، واقشعرَّ العُود، وذهبت البَشَاشة والبِشْر، وجاء العُبوس والعُسْر.

بناء الشِّعْر والخطابة
على التَّخييل لا المعقول

وعلى هذا موضوع الشِّعر والخطابة، أنْ يجعلوا اجتماعَ الشيئين في وصفٍ عِلة لحكمٍ يريدونه، وإنْ لم يكن كذلك في المعقول ومُقْتَضَيَات العقول، ولا يؤخذ الشاعر بأنْ يصحِّح كونَ ما جعله أصلًا وعلّة كما ادَّعاهُ فيما يُبْرِم أو يَنْقض من قضيّة، وأنْ يأتي على ما صَيَّره قاعدةً وأساسًا بيّنة عقلية، بل تُسلَّم مقدّمتُه التي اعتمدها بيّنةً، كتسليمنا أنَّ عائب الشيب لم يُنكر منه إلَّا لونَه، وتناسِينا سائر المعاني التي لها كُره، ومن أجلها عِيب.

وكذلك قول البحتري:

كَلَّفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقكُم

في الشِّعر، يَكْفِي عن صِدْقِهِ كَذِبُهْ

أراد كلّفتمونا أنْ نُجري مقاييس الشِّعر على حدود المنطق، ونأخذ نفوسَنا فيه بالقول المحقَّق، حتَّى لا ندَّعي إلَّا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به، ويُلجئ إلى موجَبه. ولا شكَّ أنَّه إلى هذا النحو قَصَد، وإيّاه عَمَد، إذْ يبعُد أنْ يريد بالكذب إعطاءَ الممدوح حظًّا من الفضل والسُّؤدد ليس له، ويُبلّغه بالصفة حظًّا من التعظيم ليس هو أهلَه، وأنْ يُجاوز به من الإكثار محلَّه، لأنَّ هذا الكذبَ لا يُبين بالحُجَج المنطقية، والقوانين العقليَّة، وإنَّما يكذَّب فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور واختباره فيما وُصف به، والكشف عن قَدْره وخسّته، ورفعته أو ضَعَته، ومعرفة محلّه ومرتبته.

خَيْرُ الشِّعْر أكذبه

وكذلك قول مَن قال: "خير الشِّعر أكذبه"، فهذا مراده، لأنَّ الشِّعر لا يكتسب من حيث هو شِعرٌ فضلًا ونقصًا، وانحطاطًا وارتفاعًا، بأنْ يَنحَل الوضيعَ صفةً من الرفعة هو منها عارٍ، أو يصفَ الشريف بنقص وعار، فكم جواد بَخَّلَهُ الشِّعر وبخيلٍ سخَّاه؛ وشُجاعٍ وَسَمَه بالجُبن وجبانٍ سَاوَى به الليث؛ ودَنِيٍّ أوطأه قِمّة العيُّوق، وغَبيٍّ قضى له بالفهم، وطائشٍ ادَّعى له طبيعة الحُكْم، ثُمَّ لم يُعتَبر ذلك في الشِّعر نفسه حيث تُنتقَدُ دنانيره وتُنشَر ديابيجه، ويُفتَق مِسْكُهُ فيضوعُ أريجُهُ.

وأمَّا مَن قال في معارضة هذا القول: "خير الشِّعر أصدقه"، كما قال:

وإنَّ أحْسَن بيتٍ أنتَ قائلهُ

بَيْتٌ يقالُ إذا أنشدتَّه صَدَقَا

فقد يجوز أنْ يُراد به أنَّ خير الشَّعر ما دلّ على حِكْمة يقبلها العقلُ، وأدبٍ يجب به الفضل، وموعظةٍ تُروِّض جماح الهوى وتبعث على التقوى، وتُبيّن موضع القُبح والحُسن في الأفعال، وتَفْصِل بين المحمود والمذموم من الخصال، وقد يُنحَى بها نحو الصدق في مدح الرجال، كما قيل: "كان زهير لا يمدح الرجل إلَّا بما فيه"، والأوَّل أولى، لأنَّهما قولان يتعارضان في اختيار نوعي الشِّعر.

بناء الشِّعْر والخطابة
على التَّخييل لا المعقول

واعلمْ أنَّ "الاستعارة" لا تدخل في قبيل "التخييل"، لأنَّ المُستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظةِ المُستعارَة، وإنَّما يعمد إلى إثبات شَبَهٍ هناك، فلا يكون مَخْبَرُهُ على خلاف خَبَره. وكيف يعرض الشكُّ في أنْ لا مدخل للاستعارة في هذا الفنّ، وهي كثيرة في التنزيل على ما لا يخفَى، كقوله عزَّ وجلَّ: {وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا} [مريم: 4]، ثُمَّ لا شبهةَ في أنْ ليس المعنى على إثبات الاشتعال ظاهرًا، وإنَّما المُراد إثبات شَبهه. وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "المؤمن مرآة المؤمن"، ليس على إثباته مِرآةً من حيث الجسم الصَّقيل، لكن من حيث الشَّبه المعقول، وهو كونها سببًا للعلم بما لولاها لم يُعْلَم، لأنَّ ذلك العِلم طريقُه الرؤية، ولا سبيل إلى أنْ يرى الإنسان وجهَه إلَّا بالمرآة وما جرى مجراها من الأجسام الصَّقيلة، فقد جمع بين المؤمن والمرآة في صفة معقولة، وهي أنَّ المؤمن ينصَح أخاه ويُريه الحَسَن من القبيح، كما تُرِي المرآةُ الناظرَ فيها ما يكون بوجهه من الحُسن وخلافه.

وجملة الحديث أنَّ الذي أريده بالتخييل ههنا، ما يُثبت فيه الشاعر أمرًا هو غير ثابتٍ أصلًا، ويدَّعي دعوَى لا طريقَ إلى تحصيلها، ويقولُ قولًا يخدع فيه نفسه ويُريها ما لا ترى.

فأمَّا الاستعارة فإنَّ سبيلَها سبيلُ الكلام المحذوف، في أنَّك إذا رجعتَ إلى أصله، وجدتَ قائله وهو يُثبت أمرًا عقليًّا صحيحًا، ويدّعي دعوَى لها سِنْخٌ[60] في العقل.

وكيف دار الأمرُ، فإنَّهم لم يقولوا: "خير الشِّعر أكذبه". وهم يريدون كلامًا غُفْلًا ساذجًا يكذب فيه صاحبُه ويُفْرِط، نحو أنْ يصف الحارسَ بأوصاف الخليفة، ويقول للبائس المسكين: "إنّك

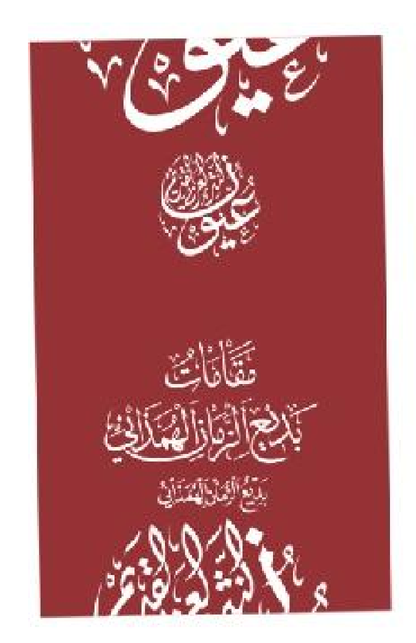
أمير العِرَاقَيْن"، ولكنْ ما فيه صنعةٌ يتعمَّل لها، وتدقيقٌ في المعاني يُحتاج معه إلى فطنة لطيفةٍ وفهمٍ ثاقبٍ وغوصٍ شديد.


البخلاء
الجاحظ


الأذكياء
ابن الجوزي


الفرج بعد الشدة
التنوخي


كليلة ودمنة
ابن المقفع


مقامات
بديع الزمان الهمذاني
بديع الزمان الهمذاني


رحلة ابن جبير
ابن جبير


أشعار النساء
المرزباني

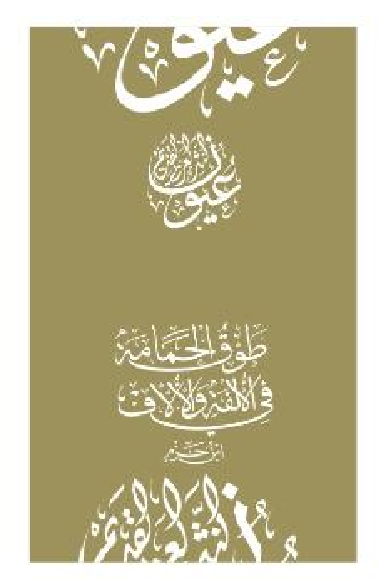

العقد الفريد
ابن عبد ربه

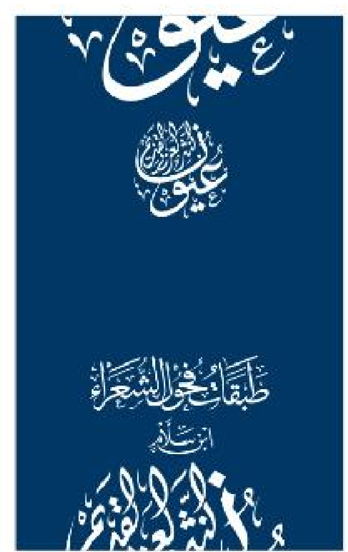

الشعر والشعراء
ابن قتيبة


الإمتاع والمؤانسة
التوحيدي

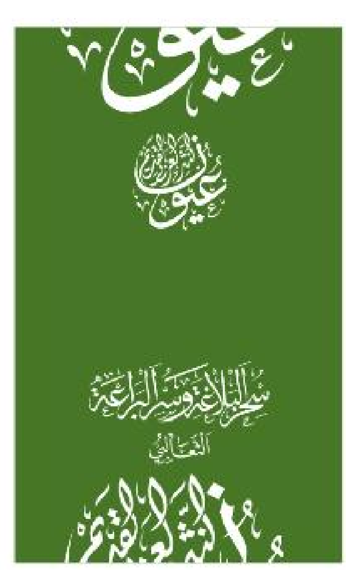

حي بن يقظان
ابن طفيل

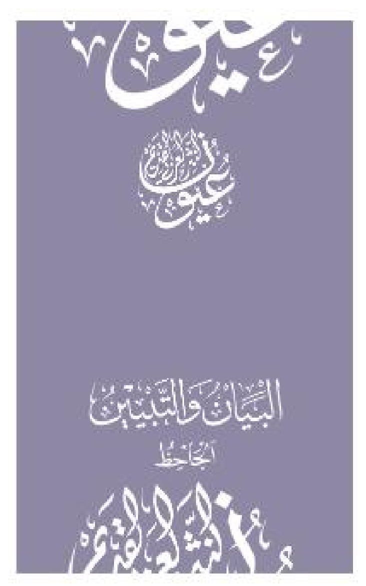

طبقات الأمم
صاعد الأندلسي

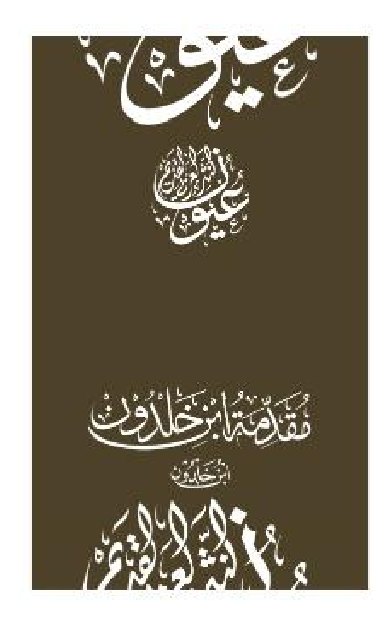

طوق الحمامة
في الألفة والألاف
ابن حزم


طبقات فحول الشعراء
ابن سلام

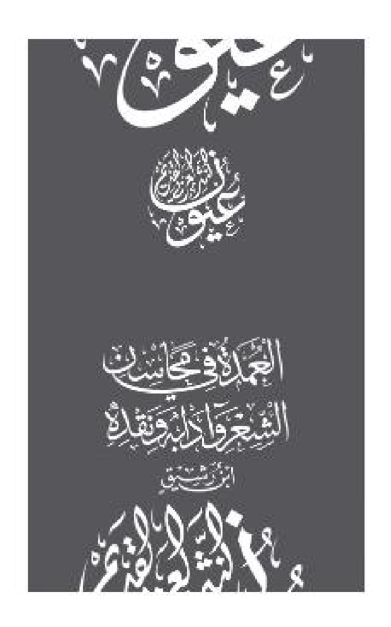

الصداقة والصديق
التوحيدي


سحر البلاغة وسر البراعة
الثعالبي

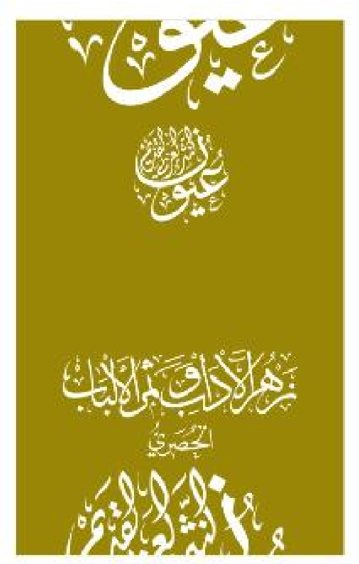

البيان والتبيين
الجاحظ


مقدمة ابن خلدون
ابن خلدون

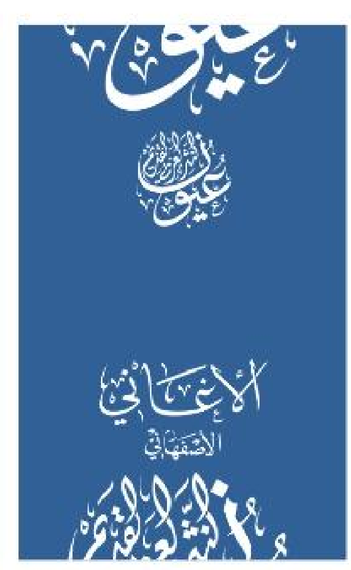

الكامل في اللغة والأدب
المبرد


العمدة في محاسن
الشعر وآدابه ونقده
ابن رشيق


عجائب المخلوقات
وغرائب الموجودات
القزويني


زهر الآداب وثمر الألباب
الحصري

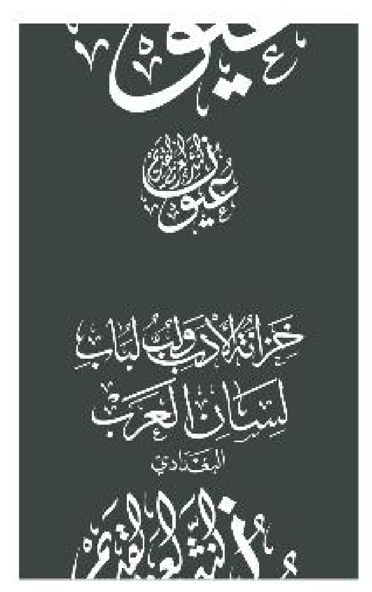

الحيوان
الجاحظ

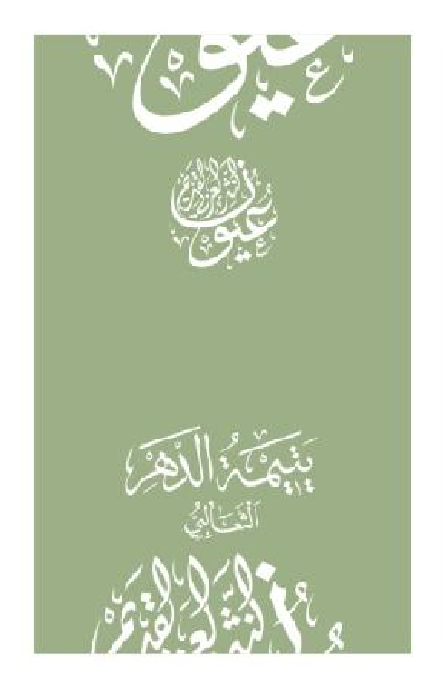

الأغاني
الأصفهاني

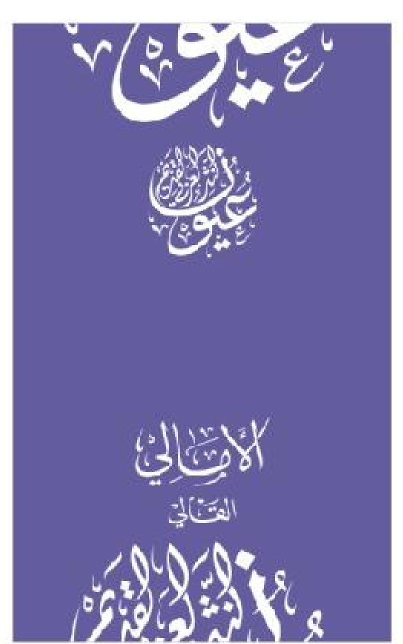

تجارب الأمم وتعاقب الهمم
ابن مسكويه


رحلة ابن فضلان
ابن فضلان


نفح الطيب
من غصن الأندلس الرطيب
المقري


خزانة الأدب ولب لباب
لسان العرب
البغدادي


يتيمة الدهر
الثعالبي


الأمالي
القالي



Notes

[1←]
كمائمه: جمع كميمة وهي غطاء النَّوْر في النبات.

[2←]
تتصوَّنُ: تحافظ على ما استُودع فيها.

[3←]
القريحة: مَلَكَة يستطيع المرء من خلالها إبداع الكلام، ومعقولة بمعنى محبوسة.

[4←]
قدح زناد العقل: فكَّر في الأمر طويلًا.

[5←]
العِكَم"، ثَوْب يُبْسط ويجعل فيه المتاع ثُمَّ يُطَوَى ويُشَدُّ بحبل.

[6←]
الجَرْس: النَّغم.

[7←]
ذهبت بمذهبه: غلبت عليه، والتوت: اختلفتْ، ومُذهَب: ما يُذهب العقل ويفضي إلى الجنون.

[8←]
نجا" الأولى من "النَّجْو"، وهو ما يخرجُ من البطن من الغائط، يريد أنّه من خوفه حدث، ثُمَّ لم يَنْجُ، من "النجاة".

[9←]
ناظراه الأولى: من المناظرة، والثانية: من النَّظر.

[10←]
التَّعمّل: التَّكلّف.

[11←]
الددان: السيف الكليل الذي لا يَمضِي في الضريبة ولا يقطع، ولا خير فيه، وإنَّما يُحلَّى ليبهر، إنَّما هو حديد لا سيف.

[12←]
"أولادُ عَلَّة"، أبوهم واحدٌ، وأمَّهاتهم شتَّى غير متقاربين.

[13←]
هو خالد بن صفوان الخطيب، قُتل سنة 135هـ.

[14←]
الأيْمن: الميمون ذو اليُمْن والبركة.

[15←]
المعارض: جمع مِعْرَض، وهو ثوب جيّد تُعْرَض فيه الجارية وتُجَلَّى فيه.

[16←]
العَرَض: الأمر الذي يجعلك عُرْضَةً لشيء بعينه، أيْ معروضًا له، أو مهيأ له.

[17←]
لا يَظهر لطفُ هذا التجنيس إلّا بذكر البيتين قبله:

أتضعْضَعَتْ عَبَراتُ عَيْنِكِ أنْ دَعَتْ

وَرْقَاءُ حين تَضَعْضَع الإظلامُ

لا تَنْشِجَنَّ لَهَا فإنَّ بُكَاءَها

ضَحِكٌ، وإنَّ بُكاءَكَ استغرامُ

وقوله: "استغرام" أي: داع للغرام، وهو الهلاك.

[18←]
أوجال: جمع وَجَل وهو الخوف والفَزَع.

[19←]
الوارف: الظلّ الممتد.

[20←]
المَرام: ما يقصده الإنسان من الكلام أو الفعل.

[21←]
دَمِث المكان وغيره كفرِحَ، سهُل ولان. والدماثة سهولة الخُلُق.

[22←]
التَّسْنيم: عين ماء في الجنَّة سُمِّيتْ بذلك لأنَّ ماءها يجري فوق الغُرف والقصور.

[23←]
المَقاديم: أجزاء البَدَن الأماميَّة من الرأس واليدين والرجلين والصَّدر.

[24←]
الزَّنيم: الذي لا يُعرف له نَسَب.

[25←]

الإبريز: الذَّهب الخالص.

[26←]

الحادثات: المصائب.

[27←]

أحظاه: أيْ جعل له حُظوةً من الجَدّ، أيْ الحظّ.

[28←]

هو بيت شِعر لزهير بن أبي سلمى:

صَحَا القلبُ عنْ سَلْمَى وأَقْصَرَ باطِلُهْ

[29←]

في مَجْمَع الأمثال: "السَّفَر ميزان السَّفْر"، والسَّفْر، المسافرون. أيْ السَّفَر يكشف عن أخلاق المسافرين.

[30←]

هو من شِعر النابغة الذبياني في ديوانه، وتمامه:

[31←]

المُنَّة: القوَّة.

[32←]

التَّوْقُ: الشوقُ إلى الشيء والنزوع إليه.

[33←]

الجِذْم: الأصل، كأصل الشجرة.

[34←]

العارِيَّة" بتشديد الياء، وجمعها "عواريّ" بتشديد أيضًا، كأنَّها منسوبة إلى "العار"، لأنَّ طلبها عارٌ وعيب، ويُقال لها: "العارَةُ أيضًا، وهو اسم من "الإعارة"، يُقال: "أعرته الشيء إعارةً وعارَة"، كما قالوا: أطعته إطاعةً وطاعة".

[35←]

الفاحم: شعرها الأسود، ثُمَّ ذَكَر أنفها.

[36←]

الرَّسَن: حَبْلُ الزِّمام يُوضع على الأنف.

[37←]

هو لأبي النجم العجلي. المِسْحَلُ: حمار الوحش، سُمِّي باسم سَحِيْلِهِ وهو صوت نهاقه.

[38←]

هو من لامية أبي النجم. حشْوُ الإبل، وحاشيتها: صغارُها.

[39←]

هو من شِعر أبي دؤاد الإيادي يصفُ فرسًا، وفي "وبتنا عُرَاةً"، وهو جمع "عارٍ" يقال: "عراه يعروهُ"، إذا غَشِيَهُ ودنا منه. و"الصَّفارُ" هنا من أحرار البقول، ترعاه الإبل، ويخرج لها إذا يبسَتْ شوكٌ، إذا وقع في أنوف الإبل والخيل والغنم أنفَتْ عنه حتى ينزعه الناس من أفواهها وأنوفها.

[40←]

يقول: غشيهم الضيفُ، فأسرع بسيفه إلى نوقٍ يعقرها ليقريَهُ. و"المُنْصُل"، السيف. و"اليَعْملات"، جمع "يَعْملةٍ"، وهي الناقة القوية على العمل،

[41←]

الغَيْهبِ: ظلام الليل.

[42←]

الكُمَاة: جمع كميّ، وهو المقاتل الذي يقي نفسه بالخوذة والدرع.

[43←]

الأُهْوِيّة" والمَهْواة والهاوية، كُلُّ فرْجة بين شيئين، كما بين أسفل البيت إلى أعلاه، وأسفل البئر إلى أعلاها.

[44←]

البارح: الرِّيح الحارة في الصيف.

[45←]

أطيط الرَّحل: صوت الرَّحْل من ثِقَل ما يحمل.

[46←]

أنقضت الدجاجة إنقاضًا: صَوَّتَتْ، وصوتها هو "النقيض".

[47←]

المِسْحُ"، الكساء من الشَّعر الخشن.

[48←]

المُلَّاحية": ضَرْبٌ من العنب الأبيض في حَبِّه طول.

[49←]

المداهن" جمع "مُدْهُن"، وهو وعاء يُحفظ فيه الدُّهن.

[50←]

شَجّ يشْجّ شجًّا"، جرح، أو أحدَث شجَّة في الرأس أو الوجه. و"أسا الجرح يأسُوه"، عالجه وداواه.

[51←]

الصَّبابة: حرارة الشوق ورقَّته.

[52←]
البزُّ": الثياب الجياد.

[53←]
العَقيق: حجر كريم أحمر.

[54←]
الزَّبَرْجَد: الحجر الكريم ذو الألوان الكثيرة.

[55←]
لابن المعتز في ديوانه، والضميرُ في "غَدَا" إلى الساق في البيت قبله:

وسَاقٍ يجعَلُ المِنْديل منهُ

مكانَ حمائل السيف الطُّوَال

و"الطرف" الفرسُ. و"الجِلال" جمع "جُلّ"، وهو لباسُ يلْبَسُه ليُصان به.

[56←]
الحشف من التمر: أردؤه وهو ما يجفُّ قبل نضجه فيخلو من الطعم.

[57←]
بطن وَجْرة": اسم مكان تَكْثُر فيه الغزلان. و"ربيبٌ" مُربًّى".

[58←]
البَازِي: جنس من الصقور الصغيرة أو المتوسطة الحجم.

[59←]
القُباطي"، ثياب كانت تُصنع بمصر، تُوصف بالرقة والدقَّة والبياض.

[60←]
السِّنْخ: الرسوخ والعلو.